منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1772)السنة السابعة -السبت (17) نيسان 2010

2

عبقري الرواية العربية نظرات في مسيرة..

6

الطيب صالح: ثنائية الصمت والرحيل

11

الطيب صالح رواية المستقبل

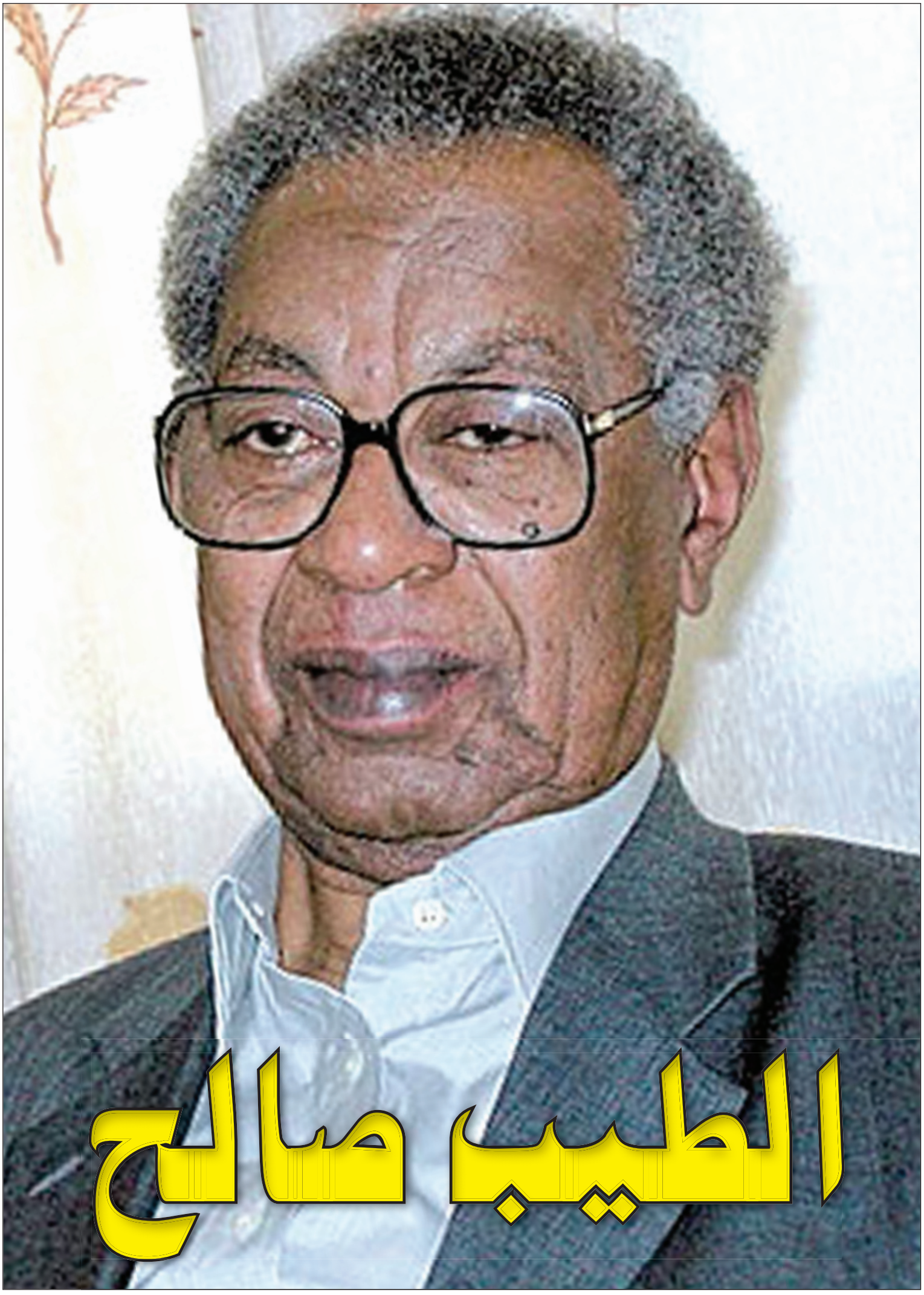

الطيب صالح

الطيب صالح

عبقري الرواية العربية
نظرات في مسيرة.. حياته.. وأدبه

الطيب صالح كاتب روائي معروف عالميا في الأوساط الأدبية بإنتاجه الأدبي الروائي الواسع الانتشار ومشاركاته الفكرية والثقافية الواسعة في المحافل العربية والعالمية، وعلاقاته الممتدة في تلك الأوساط مع كبار أدباء العالم وعلمائه وساسته في المؤسسات الإقليمية والدولية، فهو شخص معروف محليا في السودان وطنه الأول، وعربيا من المحيط إلى الخليج، وعالميا من لندن إلى باريس؛إذ قضى ما يقرب من ستين عاما متنقلا بين تلك الأوساط زمانا ومكانا، مدرسا وإعلاميا وإداريا وخبيرا وكاتبا روائيا وصحفيا ذائع الصيت، له أصدقاء وجمهور وصلات رسمية وشعبية في كل بلد.

نحاول في هذه الورقة الموجزة تسليط ~~بعض الضوء على~~ مسيرة حياته وأدبه وإنتاجه الفكري والثقافي، محاولين الوقوف على محطات حياته وسيرته من ميلاده حتى وفاته، ناظرين بمنظارنا الخاص، مستفيدين من فيض ما كتب حوله من كتب ودراسات ومقالات.

١- الطيب صالح - أو عبقري الرواية العربية" كما جرى بعض النقاد على تسميته- أديب عربي من السودان، أسمه بالكامل(الطيب محمد صالح أحمد) ولد عام (١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م) في إقليم مروي شمالي السودان بقرية كَرْمَكوْل بالقرب من قرية دبة الفقراء وهي إحدى قرى قبيلة الركابية التي ينتسب إليها، وتوفي في أحد مستشفيات العاصمة البريطانية لندن (التي أقام بها) في ليلة الأربعاء ١٨ شباط ٢٠٠٩ الموافق:٢٣ صفر ١٤٣٠هـ. عاش مطلع حياته وطفولته في ذلك الإقليم، وفي شبابه انتقل إلى الخرطوم لإكمال دراسته وسافر إلى إنكلترا للعمل والدراسة.

٢- تعليمه : درس الطيب صالح المرحلة الابتدائية في بلدته بشمال السودان، والمتوسطة ببور تسودان على شاطئ البحر الأحمر، وبذلك أتيح له أن يعيش في بيئة البحر كما عاش طفولته وصدرا من شبابه في بيئة النهر في قريته المطلة على نهر النيل من الجهة الغربية، وكان لهذا أثره في توسيع خياله وتفتح قدراته الإبداعية مستقبلا .

وقد واصل دراسته فدرس المرحلة الثانوية في مدرسة وادي سيدنا الثانوية بالخرطوم، وهي إحدى ثلاث مدارس ثانوية كبيرة آنذاك في السودان، في عهد الاستعمار الإنكليزي للسودان.

التحق الطيب بجامعة الخرطوم فدرس بكلية العلوم وعين معلما بالمرحلة الابتدائية بوزارة التربية السودانية لثلاث سنوات، ثم التحق بالقسم الثقافي في هيئة الإذاعة البريطانية كما التحق هناك بجامعة لندن ودرس الشؤون الدولية السياسية .

٣- مصادر ثقافته: استقى الطيب صالح ثقافته الموسوعية ومعارفه الواسعة وعلمه الغزير بالدنيا والحياة والناس، من عدة مصادر أسهم كل مصدر منها بنصيب قليل أو كثير في تكوين تلك الثقافة المتنوعة، منها ما ذكرته من بيئته المحلية ودراسته النظامية، وقد كانت المدارس يومئذ قليلة جدا في السودان الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار الإنكليزي، وقد كان الطيب من المحظوظين القليلين الذين وجدوا نصيبهم من التعليم النظامي في تلك المدارس الحكومية القليلة، وقبل ذلك تعلم الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب وحفظ كثيرا من القرآن في تلك الكتاتيب الشعبية التي يسميها السودانيون بالمسيد أو الخلوة، وقد كان يقوم عليها شيخ من شيوخ الدين يعاونه أهل القرية أو الحي كل بما تيسر له، وهذا في كل قرية من القرى الكبيرة وأحياء المدن .وقد كانت تلك المدارس الحكومية القليلة قوية جدا في نظامها التربوي والتعليمي ومدرسيها ومناهجها التي كانت تدرس باللغة الإنكليزية عدا منهجي الدين واللغة العربية.، وهما مادتان هامشيتان وقتئذ .

وقد كان في كل مدرسة مكتبة كبيرة مليئة بالكتب العربية والإنكليزية من كل نوع ولون بالإضافة إلى الصحف والمجلات الصادرة في العالم على قلتها في تلك الأيام، مثل مجلة الرسالة التي كانت تصل من مصر، وكذلك دواوين كبار شعراء العربية قديما وحديثا، فتعلم الطيب في هذه المدارس حب الاطلاع العام والقراءة الحرة والنقاش المفتوح على كل الاتجاهات مع زملائه ومدرسيه .

وهذه العادة- عادة حب القراءة والاطلاع على كل جديد- ظلت ملازمة له حتى آخر أيام حياته، فكان ذلك هو أكبر منابع ثقافته ومصادر علمه ومورد خياله الواسع المجنح.

٤- لغته العربية والأجنبية: كان الطيب واسع العلم بالعربية والإنكليزية والفرنسية، فقد كتب وحاضر وخطب بهذه اللغات الثلاث في كتبه ومقالاته ومحافله الرسمية والشعبية، وكان يمتلك ناصيتها جميعا فيعبر بها فصيحا بليغا في غير تقعر ولا تكلف، يأتيك كلامه منسابا متسلسلا كجدول ماء رقراق هادئ، كما يقول صديقه وأحد أكثر الناس قربا منه الأستاذ طلحة جبريل الذي أصدر كتابا عنه:" كان الطيب صالح في كتاباته شديد الاحتفاء باللغة، يلتقط التعابير والمعاني كأنها مسكوكات في يد صائغ ماهر، ومنمنات يطرزها تشكيلي بارع. عندما تطرق آذانه جملة رشيقة أو كلمة لها رنين يطرب لها كما يطرب الناس للشدو الجميل" .

٥- أعماله المهنية: تنقل الطيب صالح بين عدة مواقع مهنية ، فبعد تلك الفترة القصيرة في التدريس عمل لسنوات طويلة من حياته في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، وترقى بها حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما، وبعد استقالته من البي بي سي عاد إلى السودان وعمل لفترة في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلى دولة قطر وعمل في وزارة الثقافة والإعلام وكيلاً لها ومشرفاً على أجهزتها. وعمل بعد ذلك مديراً إقليمياً بمنظمة اليونسكو في باريس، وعمل ممثلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي

٦- ملامح كتاباته: ويمكن القول إن حالة الترحال الدائم والتنقل الكثير بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعة بأحوال الحياة والعالم ، وأهم من ذلك أحوال أمته وقضاياها، وهو ما وظفه في كتاباته وأعماله الروائية وخاصة روايته العالمية "موسم الهجرة إلى الشمال" .

كتابته تتطرق بصورة عامة إلى السياسة، وإلى مواضيع أخرى متعلقة بالاستعمار، والمجتمع العربي والعلاقة بينه وبين الغرب. في أعقاب سكنه لسنوات طويلة في بريطانيا فإن كتابته تتطرق إلى الاختلافات بين الحضارتين الغربية والشرقية. والطيب صالح أحد أشهر الكتاب في عصرنا هذا، لرواياته وقصصه القصيرة، التي تقف في صف واحد مع إنتاج كبار كتاب العالم شرقا وغربا .

٧- كيف عرف العَالم الطيب صالح ؟

يقول الأستاذ طلحة جبريل: إن أول عمل أدبي ألفه الطيب صالح هو "نخلة على الجدول"، وذلك عام ١٩٥٣م بعاصمة

استقى الطيب صالح ثقافته الموسوعية ومعارفه الواسعة وعلمه الغزير بالدنيا والحياة والناس، من عدة مصادر أسهم كل مصدر منها بنصيب قليل أو كثير في تكوين تلك الثقافة المتنوعة، منها ما ذكرته من بيئته المحلية ودراسته النظامية، وقد كانت المدارس يومئذ قليلة جدا في السودان الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار الإنكليزي، وقد كان الطيب من المحظوظين القليلين الذين وجدوا نصيبهم من التعليم النظامي في تلك المدارس الحكومية القليلة،

الضباب لندن، والقصة في مجملها كما يصفها المؤلف نفسه "بسيطة، كتبتها ببساطة شديدة جداً... كانت القصة تعبيراً عن حنين للبيئة، ومحاولة لاستحضار تلك البيئة". وبعدها انقطع الطيب عن الكتابة لمدة سبع سنوات، ثم أنتج تباعاً "حفنة تمر"، و"دومة ود حامد". ويحدثنا الأستاذ علي أبوعاقلة أبوسن عن "دومة ود حامد" قائلاً: "إن الطيب صالح قال له ذات مرة إنه كتب قصة قصيرة، ويريد رأيه فيها. كان ذلك عام ١٩٦١م، فأعجبته القصة، وطلب من الطيب صالح نشرها، لكنه رفض فكرة النشر، وحاول نزع المسودة من يده، ولكن أبوسن رفض إعادة القصة إليه إلا إذا وافق على نشرها، وبعد ثلاثة أيام جاءه الطيب صالح ضاحكا، وقال: "يا سيدي خلاص أنا وافقت، لكن من ينشرها لنا ؟". وفي العام نفسه، حسب رواية طلحة جبريل، نشرت مجلة أصوات اللندنية "دومة ود حامد"، ثم ترجم دينيس جونسون ديفيس النص العربي إلى الإنكليزية، ونشره في مجلة انكونتر (Encounter) الأدبية، وكان نشرها في هذه المرحلة الباكرة من عُمْر الطيب، ومع كُتَّاب مرموقين أمثال الكاتب الأمريكي نورمان مليز، بمثابة ميلاد حقيقي لأدبنا الطيب صالح، وفتح أدبي جديد في مساراته الأدبية. وعندما شجعه "ديفيس" على مواصلة الكتابة قال له الطيب صالح في سخريته المعهودة: "يعني أتحول إلى كاتب ؟! هذه مزحة، لقد كتبتُ ما عندي وخلاص !". وبعد الصدى الذي أحدثته "دومة ود حامد" في الأروقة الأدبية العربية والعالمية، كتب الطيب روايته "عُرس الزين"، إلا أنه أحجم عن نشرها ولم يطلق سراح نصها الأدبي إلا عام ١٩٦٤م، حيث نشرت الرواية في مجلة الخرطوم الثقافية، ولكن لم يحفل الناس بها كثيراً، خاصة في السودان، على عادة أهله في كل ما يتعلق بهم من أعمال وأشخاص، ثم أردف ذلك بعمله الروائي الرائد "موسم الهجرة إلى الشمال" الذي نشرته مجلة حوار البيروتية عام ١٩٦٦م. ويقول في هذا المضمار الأديب الدبلوماسي السوداني سيد أحمد الحاردلو: إنه كان في زيارة إلى قاهرة المعز بصُحبة الأستاذ محمد أحمد المحجوب (الشاعر الأديب الزعيم السوداني الراحل، وكان رئيسا للوزراء)، وفي تلك الأثناء اشترى خمس نسخ من مجلة حوار البيروتية، وأعطى منها نسخة للأستاذ رجاء النقاش الذي قرأ رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" بعين فاحصة ناقدة، وكتب عنها مقالاً بعنوان: "الطيب صالح عبقري الرواية العربية". وحسب الأستاذ الحاردلو وآخرين إن ذلك المقال هو الذي وضع الطيب صالح على قمة الروائيين العرب منذ عام ١٩٦٨م، وجعل الناس يعودون الكرة لقراءة أدبياته السابقة، ويتشوقون لمطالعة إسهاماته اللاحقة .

٨- إنتاجه الأدبي : كتب الأديب الطيب صالح طوال مسيرته الطويلة خمس روايات، هي: "دومة ود حامد" (١٩٦١م)، و"عُرس الزين" (١٩٦٤م)، و"موسم الهجرة إلي الشمال" (١٩٦٦م)، و"ضو البيت" (١٩٧٨م)، و"مريود" (١٩٧٨م)، ومجموعة قصصية قصيرة، شملت "حفنة تمر"، و"نخلة على الجدول"، و"هكذا يا سادتي"، و"الرجل القبرصي"، و"هكذا يا أستاذ"، و"رسالة إلي إيلين". وذلك فضلاً عن المقالات التي نشرها في بعض المجلات والصحف، وجمعها مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي (بأم درمان في السودان) بالتعاون مع دار رياض الريس البيروتية للطباعة والنشر في تسعة أجزاء عام ٢٠٠٤م، ونشرها تحت عناوين جاذبة، نذكر منها: "منسي: إنسان نادر على طريقته!"، و"المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة"، و"للمدن تفرد وحديث: الشرق"، و"للمدن تفرد وحديث: الغرب"، و"في صحبة المتنبي ورفاقه"، و"في رحاب الجندارية وأصيلة"، و"وطني السودان"، و"ذكريات الموسم"، و"خواطر الترحال".

٩- قراءة في بعض أعماله الأدبية: سبق القول بأن الطيب صالح كتب العديد من الروايات والمجموعات القصصية التي ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة ومن أبرزها:

• موسم الهجرة إلى الشمال : تعتبر روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" واحدة من أفضل مائة رواية في العالم. وقد حصلت على العديد من الجوائز. وقد نشرت لأول مرة في أواخر الستينات من القرن العشرين في بيروت وبها منح لقب "عبقري الأدب العربي". في عام ٢٠٠١ م في مهرجان القاهرة الدولي للرواية العربية، كما أعلنت الأكاديمية العربية في دمشق أنها "الرواية العربية الأفضل في القرن العشرين. وقد ترجمت روايته هذه تحديا إلى ما يقارب ستين لغة من لغات العالم الحية .ولي في أسباب هذا الاهتمام بها لا يتسع له المجال.

ومن الواضح أن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" نالت شهرتها من كونها من أولى الروايات التي تناولت، بشكل فني راق، الصدام بين الحضارات وموقف إنسان العالم الثالث . النامي- ورؤيته للعالم الأول المتقدم، ذلك الصدام الذي تجلى في الأعمال الوحشية دائماً، والرقيقة الشجية أحياناً، لبطل الرواية "مصطفى سعيد".

وآخر الدراسات الحديثة التي تناولت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" ورواية "بندر شاه" للكاتب نفسه، تلك الدراسة التي نشرت أخيراً في سلسلة حوليات كلية الآداب التي يصدرها مجلس النشر العلمي . في جامعة الكويت بعنوان "رؤية الموت ودلالتها في عالم الطيب صالح الروائي، من خلال روايتي: موسم الهجرة إلى الشمال، وبندر شاه"للناقد الأكاديمي الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عبد الرءوف الخانجي، الأستاذ في قسم اللغة العربية .كلية الآداب جامعة الملك السعود حاليا، وفي عدد من الجامعات السودانية والعربية سابقا.

تتناول الدراسة بالبحث والتحليل رؤية الموت ودلالتها في أدب الطيب صالح الروائي في عملين بارزين من أعماله هما: "موسم الهجرة إلى الشمال" و"بندر شاه"، وتنقسم الدراسة إلى قسمين كبيرين وخاتمة.

يعالج القسم الأول منهما محوري الموت الرئيسين في هاتين الروايتين: محور موت الأنثى، وهو موت آثم يرتبط في أكثر معانيه بغريزة الجنس ولا يخلو من عنف أو خطيئة، وموت الرجل وهو موت نبيل يرتبط بالكبرياء والسمو ولا يخلو من تضحية ونكران ذات.

هذان العالمان المتمايزان يثير الروائي من خلالهما عدداً من القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية والنفسية، توحي بأزمة الصراع المكثف بين حضارتي الشرق والغرب فكأن المقابلة بين الأنثى والرجل ووضعهما في إطارين متمايزين من خلال الموت- وهي مقابلة من صنع صاحب الدراسة لا الروائي . تلك الرؤية الفنية ترمي إلى اختصار الصراع بين عالمين مختلفين حضارياً: شمال و جنوب، وهي في النهاية المعادل الفني لأزلية الصراع بين الشر والخير ممثلين في الأنثى والذكر، والشمال والجنوب، بما لذلك من مردود أسطوري في وعي الإنسان الشرقي وذاكرته الجماعية، وهو ما لم تشر إليه الدراسة مكتفية بتتبع أنواع الموت وطرائقه التي تمارس من قبل الرجل في الروايتين.

فالمرأة في موسم الهجرة إلى الشمال ضحية لرجل . دائماً . بينما الرجل ضحية . أيضاً . لظروف مجتمعية أسهم في خلقها مجتمع الضحية الأنثى بشكل ما، فعلاقة مصطفى سعيد بالأنثى هي دائماً علاقة آخرها موت مدمر؛ إذ إن "مصطفى". كما الناقد الدارس . ينتقم في شخص الأنثى الغربية لسنوات الذل والقهر والاستعمار لبلاده وشعبه وأمته لينتهي بها الأمر إلى قتل نفسها بنفسها.

وموت الرجل . وهو المحور الثاني من القسم الأول . دائماً موت علوي تتجلى دلالاته في العودة إلى النيل مصدر الحياة "ذهب من حيث أتى من الماء إلى الماء" كما في بندر شاه.

ويتناول القسم الثاني من الدراسة الدلالات الفكرية المتصلة بعالمي الموت وكيف عبرت الروايتان عن هذه الدلالات في قوالب فنية منتهياً إلى أن أشكال الموت لدى الطيب صالح توزعت على أطر ثلاثة: الموت الوفاة ، والموت القتل ، والموت الانتحار، وكل إطار من هذه الأطر الثلاثة نتج عن رؤية فكرية وفلسفية ونفسية اقتضتها طبيعة الأحداث والمواقف، لكن النمط الأكثر بروزاً من أنماط الموت الثلاثة السابقة هو النمط الثاني الذي يمثله: الموت القتل، حين جعلته رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" يفجر طاقات متباينة من الدلالات الفكرية ووظائفها الفنية، وظل الموت القتل في صراع الشخصيات يتراوح بين السلب والإيجاب وبين الرفض والقبول وبين القوة والضعف وتتبع الدراسة التجليات المختلفة لهذا النوع من الموت عبر روايتي: "موسم الهجرة إلى الشمال" و"بندر شاه". وتخلص . عبر خاتمتها . إلى أن للموت سلطاناً لا ينكر على عالم الطيب صالح الروائي؛ فقد وفق من خلال بناء هذا العالم في تقديم عطيل جديد هو : مصطفى سعيد ، عطيل القرن العشرين الذي حاول عقله أن يستوعب حضارة الغرب لا يبالي ولا يهاب، له القدرة على الفعل والإنجاز، ويحارب الغرب بأسلحة الغرب.

وبعد ما يقارب الأربعين سنة من ميلاد تلك الشخصية اللغز، تعود الفنانة التشكيلية جريزالدا الطيب (زوجة العلامة الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب) في مقال لها صدر في جريدة "الشرق الأوسط" إلى زمن كتابة الرواية وكانت شاهدة وعارفة بشخوصها الواقعية التي استلهم منها الطيب صالح شخصيته تلك لتؤكد أن "مصطفى سعيد" هو مزيج بين ثلاثة أشخاص حقيقيين عرفهم الروائي "أحدهم هو د. سعد الدين فوزي وهو أول سوداني يتخصص في الاقتصاد بجامعة أكسفورد، حيث تزوج فتاة هولندية محترمة ومخلصة وليست شبيهة بالفتيات في الرواية، وحصل على درجة الدكتوراه في العام ١٩٥٣، وعاد إلى السودان، حيث شغل منصبا أكاديميا رفيعا الى أن توفي بالسرطان عام ١٩٥٩. ولكن قبل ذلك التاريخ في الخمسينات حصل عبد الله الطيب على درجة الدكتوراه من جامعة لندن في اللغة العربية وعيّن بعدها محاضرا في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بالجامعة نفسها، وقبلها بعامين تزوج من فتاة إنجليزية (هي الكاتبة نفسها)، ومرة أخرى ليست شبيهة بصور فتيات الرواية. إذا هنا مزج الطيب صالح الشخصيات الثلاثة: سعد الدين وحصوله على شهادة دكتوراه في الاقتصاد من أكسفورد والدكتور عبد الله الطيب وتعيينه محاضرا في جامعة لندن. أما الشخص الأكاديمي السوداني الثالث الذي اقتبس الطيب صالح جزءا من شخصيته لتمثل الصفة الثالثة عند مصطفى سعيد -وهي الدون جوان، إلى حد ما- فهو الدكتور أحمد الطيب صديق الثلاثة ورفيقهم في الدراسة بالسودان وبريطانيا".

لقد تمكن الطيب صالح من "عجن" تلك الشخصيات التي عرفها واستخلص منها "مصطفى سعيد" الذي قادته مغامراته إلى حتفه .

ويقول الناقد الجزائي الأستاذ الخير شوار في مقال نشره على موقعه الشخصي عقب وفاة الطيب صالح : " ويرحل صالح في زمن كثرت فيه "قوارب الموت" التي يركبها شباب الضفة الجنوبية بحثا عن "جنة الشمال" لكن الكثير منهم يحدث له ما حدث في نهاية تلك الرواية وينتهي تائها بين الشمال والجنوب بلا بوصلة، ولم يحل لغز مصطفى سعيد بل تعدد إلى درجة الازدحام، ولئن تاه "الأبطال" وقضوا حتفهم بين الشمال والجنوب، فإن صالحا فارقنا انطلاقا من الشمال كأنه أحد أبطال رواية لم يكتبها هو بل كتبها القدر الذي وضع نقطة نهايتها الأربعاء فجرا".

• عرس الزين : و روايته "عرس الزين" حولت إلى دراما في ليبيا ولفيلم سينمائي من إخراج المخرج الكويتي خالد صديق في أواخر السبعينات حيث فاز في مهرجان كان بفرنسا . وتعد رواية "عرس الزين" ثاني أهم عمل روائي للطيب بعد روايته الفلتة "موسم الهجرة إلى الشمال"

١٠- إسهاماته الصحفية: كان للطيب صالح إسهام واسع في المجال الصحفي مسموعا ومقروءا، فقد قدم برامج ثقافية وفكرية عديدة من القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) ومن أثير الإذاعة السودانية بأم درمان، حين عمل مستشارا لها بعد استقالته من الإذاعة البريطانية . ومن أحسن ما قدمه عبر الإذاعة السودانية برنامج السيرة النبوية العطرة، واستضافاته لكبار رجال الأدب والثقافة والفكر.

وفي مجال الصحافة، كتب الطيب صالح خلال عشرة أعوام عمودا أسبوعيا في الصفحة الأخيرة من مجلة "المجلة" الشهرية، خلال عمله في هيئة الإذاعة البريطانية تطرق فيها إلى مواضيع أدبية وتاريخية متنوعة. وأحسن ما كتبه في هذا العمود- وكله حسن- ما تعلق بالسيرة النبوية العطرة وسير الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم- والتاريخ الإسلامي المشرق بالبطولات والتضحيات والإيثار والتسامح، وزاد من روعة هذه المقالات التي يبدو أن الطيب كان يحتشد لها احتشادا قويا، ما فيها من ربط قوي وتطبيق على واقع حياة المسلمين المعاصرة، بعد استخلاص العبر والدروس من أحداث التاريخ الإسلامي وسير أعلام النبلاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

وله مقالات متنوعة في الصحف السودانية العربية واللندنية بشكل أوسع، مثل الشرق الأوسط، والمجلات العربية، مثل مجلة الدوحة القطرية التي كان الطيب مؤسسها أيام عمله وكيلا لوزارة الثقافة والإعلام القطرية، وقد اختار رئيسا لتحريرها هو صديقه الأديب الكاتب الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الشوش أستاذ الأدب العربي في جامعة الخرطوم وجامعات عربية أخرى سابقا والملحق الثقافي بالسفارة السودانية في قطر حاليا، وقد كان أحد رفقاء الطيب في الدراسة والعمل لفترات طويلة .

يقول عن الكتابة والإبداع :

×على الرغم من الأزمات الخطيرة التي كان يمكن أن تدمر هذا البلد (السودان)، هناك شيء متماسك وهناك إبداع . ثمة شبان يكتبون كتاباتٍ ممتازة في جميع نواحي الإبداع شعراً ونثراً ورساً وموسيقى وتلحين.

× لم أرغب أن أكون كاتباً في يوم من الأيام مثل ما لم تكن لدي أية رغبة في نشر ما كتبته.

×لم أحب مطلقاً أن يقال إنني كاتب.

×لدي شعور، - وهذه نقطة قد لا يستوعبها كثيرون- أن الشهرة توبخني؛ لذا لا أحس بأية متعة من وراء الشهرة. بعض الناس قد يعتقدون هذا من قبيل التواضع، لكنه قطعاً ليس كذلك، أشعر بالتوبيخ الداخلي إذ إني أدرك أن الشهرة جاءتني بسبب تنكري أصلا لبيئتي ومحاولة إقامة جسور معها من خلال الكتابة.

جريدة الايام السودانية ٢٠٠٩

كتب الطيب صالح خلال عشرة أعوام عمودا أسبوعيا في الصفحة الأخيرة من مجلة "المجلة" الشهرية، خلال عمله في هيئة الإذاعة البريطانية تطرق فيها إلى مواضيع أدبية وتاريخية متنوعة.
وأحسن ما كتبه في هذا العمود- وكله حسن- ما تعلق بالسيرة النبوية العطرة وسير الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم- والتاريخ الإسلامي المشرق بالبطولات والتضحيات والإيثار والتسامح

«عطيل» العربي المتحرر من أسر اللون

علي بدر

أعاد الطيب صالح الاعتبار لـ«عطيل»، لا في النصية الشكسبيرية كدراما كلاسيكية متوترة، إنما كعلاقة مضطربة ومهددة، كتراجيديا تبرز فجأة من النصية الاستعمارية، ومن وجودها المتجدد والحيوي في التاريخ السياسي والاجتماعي للصراع بين أفريقيا وأوروبا، وهكذا يدفع الطيب صالح رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» لتكون الخطاب النقيض للمفهوم الشكسبيري حول قضايا العرق والدم، ولتتحول هذه الميتا-دراما إلى نوع من العلاقة الغامضة بين أسود من المستعمرة وشقراء من المتربول، وبفضل سلسلة من الاضطرابات السيا-سايكولوجية، تصل الرواية إلى الذروة، القتل، انتفاء النص الشكسبيري، نقص تراتب الأنساق العرقية، قانون العيب، الخيانة، ومن ثم نهاية النص الشكسبيري الذي قام أصلاً في مأسسة مشكلة هذه الثنائية الثقافية والحضارية، بل لتتلاشى هذه الدراما الكونية تحت هاجس العلاقة النقضية بين عطيل وديزدمونة، وتتحول من دراما متوترة إلى محاولة ثقافية لاستدعاء التراث الغربي ومن ثم الاحتياز عليه وتمثيله، لقد أخرج الطيب صالح «عطيل» الأسود المحبوس في لونه الماحق، إلى التجربة المعيشة.

ولا بد من إعادة الاعتبار إلى جوزيف كونراد، وإلى أحداث روايته الطاحنة «قلب الظلام»، لا في تصوير هذا التضاد الظاهر في علاقات القوة بين المستعمر والمستعمر، إنما في تصوير التهديد الناجم عن تمثيل الآخر، بصفته نقيضاً للذات المركزية الغربية ومركزية اللوغوس الغربي، بل عمد الطيب صالح إلى تجاوز علاقات التمثيل من مجرد انعكاس للممارسات الكولونيالية إلى اشتباك جسدي، بل حرر العلاقة التاريخية بين النقيضين: غرب/شرق، أفريقيا/أوروبا، شمال/جنوب، إلى علاقة قائمة في الهاجس الإنساني، وهذا الأمر أكثر تعقيداً من فكرة كونراد بكثير، على رغم ألمعية رواية كونراد واستثنائيتها في التاريخ الإنساني، لأن صالح ذهب مباشرة نحو العلاقات الجنسية المتوترة، وقد حول بذلك العلاقة التاريخية من علاقة سياسية ظاهرة إلى فحولة قاهرة وأنوثة مقهورة.

ويجب الوقوف أمام «موسم الهجرة إلى الشمال» وموقعها في الدراسات ما بعد الكولونيالية، والدراسات الثقافية، وأدب المنفى والهجرة، وقراءات بوليطيقيا الجسد في الدراسات الحديثة، وبعث أسطورة كاليبان بصفته الآخر الذي يجب السيطرة عليه باسم المدنية، والذي يطرح في شكل ثابت ثنائية الفوضى والنظام، والخطاب الناتج من تأكيد علاقة تفوق اللون مع احتمالات العصيان وتبديد السلطة. وليظهر على نحو محفوف بالمخاطر أثر الرق الممسوح والمختلط الخاص بهذا التاريخ الكرنفالي، والفصل الزائف والمتوحش الذي يؤكده فرانز فانون بين القصبة المظلمة والحقيرة وبين المدينة الأوروبية المضاءة، والإحساس بالنشاز الكياني والأنطولوجي والقيمي للبشر.

أخيراً هذا هو الطيب صالح، السوداني، العربي، الكوني، سافر كثيراً، وعمل طويلاً، وكتب الروايات، والقصص، وأدب الرحلات، وعمل مذيعاً، ومستشاراً ثقافياً، ثم مات بعيداً من بلاده، بعد أن منعت روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلى الشمال» في بلاده بضعة أعوام.

شهادات

موهبة استثنائية

ابراهيم اصلان

تعرفت المرة الاولى على الطيب صالح في بغداد في مهرجان المربد في اوائل الثمانينيات تقريبا .كنا جلوسا في بهو الفندق وفؤجئنا برجل اسمر يرتدي الزي السوداني ويسأل «وينه ابراهيم اصلان؟».

ومن ساعتها بدأت بيني وبينه صداقة عميقة قائمة على الود والتقدير اكثر من كونها قائمة على كثرة اللقاءات. وكنا عندما قرأنا روايته «موسم الهجرة الى الشمال» التي اصدرها الناقد الكبير الراحل رجاء النقاش في سلسلة روايات الهلال اصابتنا بحالة اشبه بالسحر. وبعد ذلك وقت رئاستي لتحرير سلسلة افاق الكتابة التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية نشرت له مختارات وتعمدت الا تكون بينها «موسم الهجرة»، من جانب لاني اردت تقديم وجه آخر للطيب صالح ومن ناحية اخرى اظن ان «عرس الزين» هي افضل اعماله على الاطلاق.

الطيب صالح موهبة استثنائية. استطاع انجاز اعمال على قدر هائل من الاصالة ورغم انه كان جوالا واستقر خارج السودان اكثر من استقراره في داخلها، لكنه استطاع تجسيد الروح السودانية بلغة قص عالية المستوى مكنته من التربع على مرتبة لا يستطيع ان ينازعه عليها الكثيرون.

كلامي عن الطيب صالح لن يضيف اليه كثيرا فيكفي ان اعماله الابداعية كانت وستظل تحتل ركنا كبيرا في اذهاننا على الرغم من انه لم يكتب ابداعا منذ فترة تقارب الثلاثين عاما. رحيل الطيب صالح خسارة كبيرة ومؤلمة.

روائي مصري

كاتب الانفتاح

غادة السمان

إن الطيب صالح كان من "الرواد الذين عملوا حركة انتقالية في الأدب عبر نقله من المحلية، ورسخ حضوره بشكل جيد عبر "موسم الهجرة إلى الشمال". وهو واحد من الذين شقوا في طريق الانفتاح وتكلم عن الجنس بحرية غير مسبوقة في بلاده، ويبدو أن هذه العوامل هي من أقصر الطرق إلى النجاح".

"أنا كنت في السودان لأسبوع كامل، وكل شخص منهم يمكن أن يكون بداخله الطيب صالح؛ لأن الشعب السوداني مثقف جدا. وما ميّز الطيب صالح هو جرأته، ولكنها لم تخدم مجتمعه ولا مثقفا عربيا تقريبا ساهم أصلا في تحرير مجتمعه من الجهل".

الإنسان العذب

بهاء طاهر

رحيل الطيّب صالح خسارةٌ كبيرة للثقافة العربية. عرفته مذ كان مذيعاً في BBC في لندن، وامتدّت علاقتي به حتى آخر زياراته القاهرة. كان إنساناً عذباً، وأعتقد أنّه كان يمتلك أصدقاء في كل بلد عربي بقدر أصدقائه في السودان، وأذكر أنّه كان عندما يحضر إلى القاهرة يلتفّ حوله أصدقاء بينهم الكاتب محمود سالم ورجاء النقّاش وغيرهما...

ومن غرائب المصادفات أنّنا خلال تأبين رجاء النقّاش الأسبوع الماضي في ذكرى رحيله الأولى، تردّد على ألسنة المتحدثين اسم الطيب صالح بسبب العلاقة الخاصة التي ربطت بين الكاتب والناقد. وقد كان للنقّاش فضل تعريف مصر والعالم العربي بأدب الطيب صالح الذي كان جديداً تماماً في حينه، وما زال مبهراً حتى الآن. فقد استطاع في كتاباته مثل «موسم الهجرة إلى الشمال» أن يجعل من الفولكلور السوداني إسهاماً أدبياً عالمياً، حيث أدمجه في رؤية فنية متقدّمة وعصريّة وبالغة الجمال. وقد كانت «دومة ود حامد» شيئاً جديداً في القصة العربية بسبب ذلك المذاق والنكهة المحلية والتاريخية والتعبير العصري في الوقت نفسه... كان الطيب صالح قادراً على اجتذاب الحب ممن يقتربون منه، لأنّه شديد العذوبة وتلقائي وساخر كبير، يبدأ بالسخرية من نفسه قبل الآخرين.

روائي مصري

الطيب وموسم الهجرة

مالك المطلبي

إن الطيب صالح لو لم يقدم سوى روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) فقط لكفاه، وذلك في إشارة من الحمد إلى ما يقوله بعض المثقفين العرب إلى الطيب صالح من أنه لم يقدم أي عمل روائي خلال الـ٢٠ سنة الأخيرة من حياته، ، في الثقافة الغربية هناك كتاب ورموز عالميون لم يكتب الواحد منهم سوى عمل واحد خلد اسمه.

تكمن روعة الطيب صالح في الكيف وليس في الكم، فمثلا رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) حظيت بالعديد من الدراسات وأسند عليها من تفسيرات، حول علاقة الشرق بالغرب، والمستعمِر بالمستعمَر، وما إلى ذلك من تفسيرات.

رحيل الضلع الثالث

بموته سقط الضلع الثالث من المثلث الذي شكل رؤيته الأدبية ولغته السردية وذائقته الفنية، فبعد رحيل محمود درويش الذي تتلمذ على أشعاره ولغته الشاعرية التي ظهرت كما يقول بشكل جلي في أعماله الأدبية الأولى، وكذلك رحيل يوسف شاهين الذي شكل ذائقته البصرية ورؤيته الفنية قبل نهاية العام، ليحلق الضلع الثالث الذي كان له دور في تشكيل لغته السردية مع بدايات العام الجديد».

كثيرا من الناس يخلطون بين شخصية الطيب صالح وبين شخصية مصطفى سعيد بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال، أحد أهم أعمال الطيب صالح، هذا لا يعني أنه ليس هناك أعمال أخرى مهمة مثل رواية عرس الزين، ودومة ود حامد، إلا إنها أغفلت وتم التركيز على موسم الهجرة إلى الشمال كعادتنا في تناول الأعمال الإبداعية.

موقف الطيب صالح بتوقفه عن كتابة الرواية موقفا شجاعا وجريئا، حيث صرح في أكثر من مرة بأنه ليس لديه شيء جديد لكي يكتبه، رغم أنه منضبط في كتابة المقالة، وهذا موقف نادر ليس على المستوى العربي بل على المستوى العالمي.

فاضل ثامر

صانع الحوار

«إن الطيب صالح روائي كبير يعد من الجيل المؤسس للرواية العربية. وقد تكون روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) واحدة من الأعمال الروائية الخالدة في خارطة الرواية ليس فقط العربية وإنما العالمية أيضا.

ويعرف له القارئ العربي سياقا روائيا ثريا حيث وضح ذلك في نقله المخزون التراثي والحياتي والاجتماعي والثقافي والسياسي في السودان مثل (دومة ود حامد).

محمود سعيد

الانكليزي الأسود على ضفاف النيل

هانزبيتر كُونش

بالرغم من مضي ثلاثين عاماً على ذيوع رواية صالح إلا أنها -ومما يدعو الى الدهشة- لم يزل تأثيرها الروحي طاغياً وهذا ما ينطبق كذلك على ترجمتها الى الألمانية التي أتت متأخرة جداً -مما يعلل تزكية الرواية هذه- هو أن القطيعة بين الثقافات رغم التناقض بين التحزب للعولمة أو التظلم منها لم تفقد أهميتها ولان الرواية كُتبت بحرية مُسيطرة.

اتسم اقتحام مصطفى سعيد لأوروبا وانسجامه بانسيابية مذهلة. كأول مبعوث سوداني يحقق حلم وصوله الى لندن، حظي في سن الرابعة والعشرين بتعينه محاضراً للعلوم الاقتصادية، وكم تعلق كلفا بحرث كتبه الجامعية، توهجت فيه ملَاحقة النساء الأوروبيات بهوس جنوني، فتارة تجده يتصدر المنصة خطيباً من أجل "اقتصاد إنساني" ومندداً بالاستعمار. أما شقته فهي خيمة شرقية منمنمة تعتمد ستراتيجية الإغراء فيها على البخور وأعواد الصندل المحروق -مضفياً على‌ها- بإهابه الأسود الأكاذيب (اللذيذة) "عن الحياة على ضفاف النيل". بفترة طويلة قبل صمويل هنتجنتون Samuel Huntington "صراع الحضارات" تطرق الطيب الى هذه الموضوعة كشرخ ينسحب على بعض المصائر الفردية لشخصيات الرواية.

احتدت المواجهة بمصطفى سعيد عندما التقي بند مثله، [أنت بشع، لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت] هكذا تفوهت جين مورس المغازلة لكل من هب ودب والمتحرشة والباحثة عن العراك أينما كان. تزوج سعيد "السوبر عربي" جين الفتاة المتحررة.

وياله من ثنائي مجبول على التحرش، كأسلوب متطرف لمواجهة الثقافات. يختم صالح الرواية بفاجعة دموية، حيث تخون جين مورس سعيد "فرضياً" قبل أن يغمد الخنجر في قلبها تحقيقا لرغبتها. عقب سبع سنوات قضاها في غياهب السجن أثر الانزواء فأستقر في قرية صغيرة على ضفة النيل، حيث التقاه الراوي المتحدث بضمير الأنا. تزوج سعيد بفتاة من القرية وأنجبا طفلين وبالرغم من مساهمته الفعالة كعضو نافع في مجتمع القرية إلا انه كان شخصاً غامضاً لا يعرف أحدُ عن تاريخه شيئاً، سوى الراوي أثر صدفة أتاحت له الاستراق اليه وهو يتلو مخموراً قصيدة إنكليزية للعائدين من الحرب، فأضطره الى كشف دقائق ماضيه الغابر خوف أن يشي به.

بالرغم من مضي ثلاثين عاماً على ذيوع رواية صالح إلا أنها -ومما يدعو الى الدهشة- لم يزل تأثيرها الروحي طاغياً وهذا ما ينطبق كذلك على ترجمتها الى الألمانية التي أتت متأخرة جداً -مما يعلل تزكية الرواية هذه- هو أن القطيعة بين الثقافات رغم التناقض بين التحزب للعولمة أو التظلم منها لم تفقد أهميتها ولان الرواية كُتبت بحريه مُسيطرة.

إن تعدد الاحتمالات داخل الرواية لهو مشروط بالفقرات "المقالية" وقصص أهل القرية الشفهية والمونولوج الداخلي وهذه العناصر في حد ذاتها توسع المنظور أكثر من مضمون حياة سعيد غريبة الأطوار والذي تلاشي دوره مع انسيابية الرواية شيئاً فشيئاً.

واختفى سعيد من القرية بعد أن تنازل عن تاريخ حياته، لعله مات منتحراً أو غرق أثناء فيضان النيل.

يقف مصطفى سعيد الاقتصادي اللامع -الى جانب قصص شخصيات الطيب صالح- كشخصية متغيرة، محفوفة بالأسرار والأخطار. إن المزج الأخاذ بين أوروبا وإفريقيا -في هذه الرواية- بتباين السرد الزمني من حيث الشكل والمضمون، خول لها التشكل كتجربة انفتاح على الإدراك الذاتي.

أجل فالسودان نفسه كمستعمرة أفروعربية سابقة قاوم منذ البداية تحديد هويته على عجل. أما حديث أعيان القرية فيقف بجانب القصص اللندنية وقصة الشاب اليتيم "غير العربي" الذي لا أصل له والغريب على أمه [لا أتأثر بشيء لا أبكي إذا ضربت، لا أفرح إذا أثني على المدرس في الفصل ... كنت مثل شيء مكور من المطاط تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز].

وجودي، انطوائي، ذاتي، أو ثلاثتهم معاً. هل يفسر ذلك الإحساس بالتماثل القدسي مع الرواية الذي لا يمت بصله في نهاية الأمر الى نمازج الحياة التي أفردها صالح جنباً الى جنب دون تقويم وأضح: قبل موته قرر مصطفى سعيد ذلك الإنكليزي الأسود العاجز عن غزو أوروبا الانسحاب من الحياة أثراً التكتم على حياته الأوروبية الغابرة كسر مقدس محتفظاً بذكرياته حول مدفأة ومحاطاً بكتب، أفلاطون، نقد الاستعمار، توماس مان، وفتغنشتاين داخل غرفه جلوس إنكليزية النمط في تلك القرية الصغيرة على ضفة النيل.

يطوق نموذج الحياة العادية للراوي، القصص الاخرى المختلفة في هيكلية الرواية، كعائد أيضاً من أوروبا أبدي استعداداً لإعادة صلته والانسجام من جديد مع حياة القرية وساهم بالخداع المرير في مفتتح الرواية إلا أن طيف حياة سعيد كان يتجابه مع فعله الذاتي وبالرغم من ذلك ظل وسيطاً متأملاً مترددا بين ثقافات تتصدرها العقبات فهو أشبه ما يكون بالراوي في رواية (قلب الظلام) لجوزيف كونراد Josph Conrad بمطاردته مصير أخر.

أما المشهد الختامي الرائع، جاء كنهاية مفتوحة ... أيتبع سعيد الى النيل ...؟ تركت كل قضايا الصراع الحالية تقريباً المتعلقة بالحياة الأفريقية، بعد الاستعمار أثاراً واضحة في هذه الرواية المدهشة التي نُشرت في عام ١٩٦٦: عواقب التطور (الثورة) التعلىمية. السلوك الاستعماري الحديث داخل البلاد للنخبة الجديدة التي تعلمت في الغرب. حق تقرير المصير للأفراد والثقافات.

الوضع الاجتماعي للمرأة وختان الإناث. اقتلوا عجوز الشهوة، إن القصص المتداخلة بمهارة في بعضها البعض تؤدي برمتها الى الكارثة:

تدخل أهل القرية لتحقيق رغبه أحد الشيوخ بالتزوج من أرملة سعيد رغم إصرارها على حريتها وكالمعتاد فقد أدرك الراوي حبه لها متأخراً. قتلت الأرملة العجوز وقطعت عضوه بعد أن حاول اغتصابها ومن ثم انتحرت طعناً.

إن الإثارة والروعة لا يكمنان في حادثة القتل المؤسسة على ميلودراميه شاقه وإنما في ما تشير اليه هذه الجريمة من واقع اجتماعي، انه صراع حضارات خفي يشتعل في تخوم قرية إفريقية.

دون واعز أخلاقي يصوغ صالح هيكله السردي الموسوم بصراعات حادة والذي تتخلله انتقالات هادئة حتى الكارثة التي لا تمثل في حد ذاتها بشارة الخلاص.

إن نصوص اخرى لأدب الرحلات -مثل "مسلم يكتشف أوروبا" لرفاعة رافع الطهطاوي في بداية القرن التاسع عشر أو السيرة الذاتية لطه حسين، "مواطن عالمي بين القاهرة وباريس" هي أقرب الى التوثيق (مقارنة بصالح)- ترسم صورة تنحو الى الطرافة في تباين الثقافات.

من التعسف أن تعرض موسم الهجرة الى الشمال كجوهرة نادرة "سوليتير". فالكتب المنشورة بالفرنسية للمغربي محمد خير الدين "الحفار؛ ١٩٧٣" أو الجزائري رشيد بوجدرة "توبوغرافيا؛ ١٩٧٥" تُشير بوضوح -وبالأخص الأخيرة- الى نماذج طليعية تستحق الالتفات.

ربما يكون إصرار صالح على المزج التجريبي والتقليدي في هيكليه السرد في هذه الرواية الصغيرة -التي تنمو من فصل الى فصل والمشار فيها دائماً الى جوزيف كونراد وتسترجع عطيل، وتقترب بصوره مدهشة من أثر شكسبير- هو الذي جعل تباين الثقافات والمناقشات الحالية حول السرد القديم والحديث مكسواً بالغبار.

إشارة المترجم:

كاتب المقال ناقد أدبي أما المقال نفسه فقد نُشر في صحيفة سودديتشا سايتنج Sueddeutsche Zeitung (العدد ١٣٩/١٩٩٨) وهي من أهم الصحف الألمانية وتصدر في ميونخ.

نقلت الرواية عن العربية باقتدار د. رجينا قروشولي Regina Karachouli الأستاذة بمعهد الدراسات الشرقية جامعة لايبزج Leipzig وزوجها الشاعر السوري د. عادل قروشولي الأستاذ السابق في نفس الجامعة.

اختتمت الترجمة بتعريف عن المؤلف كتبه د. هارتموت فندرش Hartmut Faehndrich المستعرب الألماني المتميز الذي شارك في مؤتمر الرواية العربية (القاهرة/ فبراير/ شباط ١٩٩٨) والمترجم لعديد من الروايات العربية منها تمثيلاً لا حصراً: (الزيني بركات: جمال الغيطاني، اللجنة: صنع الله إبراهيم، نزيف الحجر: إبراهيم الكوني).

كُتب اسم المؤلف Tajjib Salich وهي صورة تختلف عما جاء في الدراسات الألمانية عن أدب الطيب صالح قبل ترجمة الرواية وعما جاء في الترجمة الإنكليزية Tayeb (Tayyib) Salih والتي هي أقرب الى الهجاء والنطق العربي.

تغير عنوان الرواية من "موسم الهجرة الى الشمال" الى "زمن الهجرة الى الشمال" وهو خليق بحجم الغلاف الأنيق ويثير في الوقت عينه فضول وانتباه القارئ خاصة بعد التطورات العالمية الأخيرة حول قضية الهجرة والمهاجرين.

تحيه لدار لينوس LENOS (بازل/ سويسرا) التي نجحت أخيراً في نشر الرواية بعد محاولات عديدة لجهات مختلفة في السنوات السابقة لم تكلل بالنجاح.

لا تزال ترجمة الأدب العربي الى الألمانية طفيفة جداً بالمقارنة بالآداب الاخرى وهذه نقطه هامة لا مجال لمناقشتها الآن ربما نعود اليها في مقال لاحق، خاصة موقف ودور الكتاب والمثقفين العرب الذين يعيشون منذ فترة طويلة في ألمانيا.

يوم اصدر الروائي السوداني الطيب صالح عمله الروائي الشاهق (موسم الهجرة الى الشمال) منتصف الستينيات (١٩٦٦) فضلا عن بقية اعماله القصصية والروائية : (دومة ودحامد) و(عرس الزين) و(بندر شاه) و(مريود) استقبلت اعماله تلك وخاصة روايته (موسم الهجرة الي الشمال) استقبالا حميما قل مثيله فكان مما كتبه رجاء النقاش الناقد المصري المعروف (لم اصدق عيني وانا التهم سطور اعمال الطيب صالح، وانتقل بين شخصياته النارية العنيفة النابضة بالحياة، واتابع مواقفه الحارة المتفجرة، وبناءه الفني الاصيل الجديد على الرواية والقصة العربية.

الطيب صالح: ثنائية الصمت والرحيل

شكيب كاظم

لم اتصور انني اقرأ اعمالا كتبها فنان عربي شاب ولم اتصور ان رواية (موسم الهجرة الى الشمال) الناضجة الفذة – فكرا وفنا– قد اخذتني الى مرتفعات عالية من الخيال الفني والروائي العظيم واطربتني طربا حقيقيا بما فيها من غزارة شعرية رائعة). والذي نشره في كتابه (أدباء معاصرون).

كما اثني عليها وتقبلها بقبول حسن الناقد السوري المعروف محيي الدين صبحي : (كان اهم اثر ادبي صاعق طلع علينا به الطيب صالح (موسم الهجرة الى الشمال) وهي رواية محيرة التي توجه اليها الباحث، كما انها مكتنزة ، متلاحمة، مشوقة، وداكنة) وفيها اخيرا قدر كبير من الاسئلة عن كنه الشخصية الانسانية، وكنه الانسان في التاريخ، وكنه الانسان في مجتمعه وكنه الانسان في مجتمع غير مجتمعه (...) الا انني لن اهتم بكل هذا الا بالقدر الذي يكفيني لاضاءة الزاوية الخاصة التي اجدني مدفوعا الى تركيز الانتباه عليها وهي زاوية الفاجعة في اللقاء الحضاري فقد لاحظت ان كل رواية تتعرض للقاء حضاري تنتهي بفاجعة تقوم على سوء التفاهم..)

– تراجع دراسته الموسومة بـ(موسم الهجرة الى الشمال: بين عطيل وميرسو) المنشورة في كتابه (ابطال في الصيرورة: دراسات في الرواية العربية والمعربة) الصادرة طبعته الاولى عن دار الطليعة ببيروت عام ١٩٨٠.

وكتبت عنه مقالة نقدية نشرتها جريدة (التاخي) يوم الاثنين ١٤/من ذي القعدة /١٣٩٥– ١٩٧٥/١١/١٧– وسمتها بـ (الطيب صالح... طاقة قصصية مبدعة) قلت فيها : تحس وانت تقرأ للطيب صالح انك امام طاقة قصصية خلاقة ومبدعة ومنشأ هذا الاحساس تمكن الطيب صالح من اداته القصصية ومن رشاقة عبارته، لابل شاعريتها، ومقدرته الفائقة على شد القارئ، كذلك يحس من يقرأ له انه امام قاص كبير وليس امام قاص دخل هذا العالم منذ مدة ليست طويلة (...) ان اروع ماكتب حتى الان هي روايته (موسم الهجرة الى الشمال) . ولقد كتب عن الطيب صالح نقاد عديدون، وطبعت اعماله طبعات عدة، وقرأها ملايين العرب، فضلا عن ترجمة روايته هذه الى الانكليزية.

كنت دائما أسائل نفسي لماذا توقف الطيب عن الكتابة؟ هل توقف حقا او كتب ماراه غير جدير بالنشر او كتب ماوجده لا يصل الى مصاف ماكتب او ان يتجاوزه؟

كثير من المبدعين الذين يبدأون حياتهم الابداعية بما نستطيع تسميته بـ(مفخرة الموسم) غالبا مايتوقفون عن الكتابة او الابداع اذ يجدون هذا الذي يكتبونه لايضاهي ماكتبوا او يوازيه، من هنا ظهر اصحاب الواحدة في التراث الادبي العربي، وماقصيدة ابن زريق البغدادي في وداع بغداد يوم غادرها ملتاعا نحو بلاد الاندلس التي كانت مهوي الافئدة ومسرح التأنس بعد بغداد بخافية عن اذهان الدارسين ، فضلا عن قصائد اخر وفي عصرنا افتتح الشاعر المحلق حامد حسين آل يونس ابداعه الشعري بقصيدة رائعة اسماها (امرؤ القيس...والعذارى) وتقع في اربعين بيتا نَوَّعَ فيها قوافيها من الجيم الى اللام الى الراء فالباء ، صور فيها بشعر جزل جميل وانيق ماذكرته كتب التراث العربي عن مجون امرئ القيس وتبذله مع بنات قومه ممن كن يستقين الماء من غدير جلجل، وكيف سطا على ملابس الحسان، حسان كندة اللواتي كن قد ارتمسن في ماء الغدير في تلك الهاجرة الصحراوية، واشترط عليهن كي يعيد اليهن ملابسهن ان يخرجن اليه عاريات، ولانعلم مدى صحة هذه الرواية لكن ليس بمستغرب ان يصدر مثل هذا التصرف عن امرئ القيس الملك الضليل، وبودي ان انقل للقارئ بعض ابيات هذه القصيدة، التي كنا نحفظها عن ظهر قلب ايام الفتاء والشباب.

أزف الترحل فالمطهمة العتاق الهوج
تسرج والفاتنات الهيف سكري الدل تبسم للمدجج
واطل فرعاها وماخجلا على الكفل المرجرج
والناهد البطر المكوز دائم الوثبات اهوج
وحسان كندة جئن بعد الركب ماء غدير جلجل
فرمين بالحبرات واستسلمن للماء المسلسل
الماء... آه الماء يهصرهن في رفق فيثمل
ووراءهن فتى يذوب جوى بمخبئه تململ
خطف الثياب وعاد يطفح بين جانحيته مأمل
واطل عن كثب وأورد مقلتيه... ألذ منهل
خرج العذارى من ثنايا الماء يثنين الضفائر
والشمس تلثم كل مكتنز شهي العطر نافر
واذا الفتى يبدو ورسل شدقه ضحكات فاجر
عطفت اميرتهن... والنهدان في الصدر اشرأبا
يأبي لها الا الخروج اليه عارية... فتأبى
حتى اذا هزئ الخليع بكل عاطفة وقربى
خرجت تعثر بالحياء كسيرة النظرات غضبي
تهتز والجسد العري... غدا لنا ظريه نهبا

لكني على كثرة مداومتي قراءة الشعر لم اعثر على اية قصيدة لحامد حسين آل يونس ليضاف هذا الشاعر الى رعيل اصحاب الواحدة ترى من يعرف عنه شيئا؟ او قرأ من شعره شيئا؟

اعود لاقول : لقد اعاد الى الاذهان ، تساؤلي السابق عن سبب توقف الطيب صالح عن الكتابة، وخاصة تلك المقالات التي دبجت اثر رحيله في لندن يوم الثلاثاء ١٨/ من شباط/ ٢٠٠٩ لفشل كلوي ودفنه في قريته مروي بالسودان وانا اري ان الطيب صالح ما مات في هذا اليوم بل مضي على موته اكثر من اربعين سنة لقد جاءت ميتته هذه لتسجل موته طبيا ، اكلينيكيا، في حين غادرنا هذا القاص والروائي المبدع منذ منتصف ستينات القرن العشرين يوم فجر في ذائقتنا اعماله الابداعية الراقية لقد كانت قنبلة الموسم ومفخرة تلك الايام ليبقى الطيب صالح يمضي ايامه كما يمضيها الناس الاعتياديون موظفا في القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية مسؤولا عن قسم الدراما وقدم لنا نحن المستمعين اعمالا باهرة على شكل مسرحيات وتمثيليات ثم ذهب الى دولة قطر ليكون موظفا ضمن موظفي وزارة الاعلام فيها فغادر الطيب التفرد والابداع.

يوم توقف الناقد العراقي المبدع والرصين مؤيد الطلال عن الكتابة قلت له : كثرة هم الذين يعملون في القطاع الذي انت تعمل فيه لكن قلة من يملكون قلم مؤيد الطلال وابداعه وفراسته النقدية والناس والقراء بحاجة الى ابداعاته كذلك فالموظفون كثرة كاثرة، لكن اندر من الكبريت الاحمر من يملكون موهبة الطيب صالح في القص او السرد الروائي لكن الطيب اثر الصمت المدمر والسكون المضجر وحرمنا متعة ان نجول في عوالمه مع اني اعزو السبب الى انه بدأ مشغله بهذا العمل المدوي الصاعق فما عاد بمكنته تجاوزه او الاتيان بما يقاربه فنا والقا وتفجرا ودويا وصعقا ومعذرة يا الطيب الصالح وانا ابوح بمكنونات صدري المكلوم لاننا بعد ان خسرناك ابداعا ومبدعا عدنا لنخسرك كيانا وجسداً.

كنت دائما أسائل نفسي لماذا توقف الطيب عن الكتابة؟ هل توقف حقا او كتب ماراه غير جدير بالنشر او كتب ماوجده لا يصل الى مصاف ماكتب او ان يتجاوزه؟ كثير من المبدعين الذين يبدأون حياتهم الابداعية بما نستطيع تسميته بـ(مفخرة الموسم) غالبا مايتوقفون عن الكتابة او الابداع اذ يجدون هذا الذي يكتبونه لايضاهي ماكتبوا او يوازيه، من هنا ظهر اصحاب الواحدة في التراث الادبي العربي

في رحيل الزين

في استذكار الطيب صالح لمناسبة ـ مفاجأة؟ ـ غيابه تحضر بقوة أعماله التي خلدته وحفظته في الذاكرة السردية المعاصرة، رغم ابتعاده المبكر وصمته وقلة إنتاجه، وانصرافه مؤخرا الى تدوين ذكرياته عن المدن والأمكنة التي عاش فيها وأحداثها التي قُدّر له أن يعيشها، وكأنه يدون وصيته الثقافية والفكرية لكونه شاهدا ذا أهمية فقد عاش في الغرب وتوجب عليه معاينة المعادلة القائمة بين الوجود هناك والعيش هنا بالعقل والضمير وهو ما جسّده في روايته (موسم الهجرة الى الشمال) التي احتلت مكانة بارزة في المدونة السردية العربية الحديثة..كعمل فني فكري مُحْكم.

حاتم الصكَر

لم يكن كثير من طلابي قد قرؤوا شيئا للطيب صالح عندما قررت لهم روايته (عرس الزين) للدراسة والتحليل في مادة النثر الحديث، لكنهم بعد أيام كانوا يتحدثون عن الزين كشخصية مألوفة وحميمة بدءا من اسمه المميز، وقد لفت انتباههم انتشال الطيب صالح للزين من الهامش الاجتماعي الى المركز وزواجه بنعمة التي ترفض وجهاء القرية، وتساءل بعضهم عن إمكان وجود حدث مماثل في الواقع يتحول فيه الفتى الأبله الظريف والدميم بطلا تتزوج به أفضل فتيات قريته.تنتهي الرواية والزين وسط الراقصين، (واقف في مكانه في قلب الدائرة، بقامته الطويلة وجسمه النحيل فكأنه ساري المركب). راح الزين يقود الحشد منتصرا على الجماعة التي عدّته مجنونا وعاملته بقسوة فثأر منها وقام بالتعويض عما أحسّه غبنا وتهميشا.. فكانت النهاية برمزيتها تشير الى الانحياز لمخلوقات الهوامش المقصاة والحواشي المهملة، وكان السودان نفسه بلد الطيب صالح يقف في قلب دائرة الرواية العربية ويظهر بإبداعه الى العالم من بعد عبر أعماله.

عندما رحل الطيب صالح في الأربعاء الرمادي الحزين تذكرت بكاء الزين ليلة عرسه عند قبر الشيخ الحنين، كان والدا رمزيا له وبصوفيته ورقة مشاعره قدّم البديل للأب الغائب في الرواية و قام بتعويض آخر، هو عصب روايات الطيب صالح في الحقيقة. وإذا كان الدارسون يعرّفون الرواية بأنها فن التحولات فإن الطيب صالح يجعلها فن التعويض عن الحرمان والفقد، كما هو حال السرد العربي في أجمل متونه كألف ليلة وليلة، وعلى أساس ذلك التعويض يتحول الأشخاص وتتحول مسارات السرد وأحداثه.

هكذا نلتقي مصطفى سعيد في (موسم الهجرة الى الشمال) فلاحا مقترنا بامرأة من غمار الناس بعد أن قتل زوجته البريطانية وعاد من رحلته الشمالية خائبا، كأنما ليترجم مقولة إن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان ولا يأملان اللقاء لأنه مستحيل فالشرق الكتلة والشرق الجهة ينأي عن الغرب كتلةً وجهة ، لذا كان سفر مصطفي سعيد بطل موسم الهجرة الى الشمال ودراسته وزواجه ومحاولة العيش في الغرب ضربا من المستحيل الذي أعاده الى النسيان في زاوية قصية من وطنه، ولكن ليلامس قضية من أخطر ما كان ـ ولا يزال ـ على لائحة الثقافة والآخر.

لقد عالج الطيب صالح بسرد روائي سلس بسيط وموجز أشد القضايا تعقيدا، وعانى ما عاناه أبطاله وبلده وثقافته العربية من أسئلة حارقة وعنت وتهميش، لكن احتفاء الرواية العربية به واغتناءها بجهده كان مكافأة للإبداع غير المصنوع بشهرة أو شائعة..وظل الطيب صالح علامة مضيئة في فضاء السرد الروائي العربي باقتصاده وتكثيفه وبلاغته وإيقاع رواياته المميز وبذلك التمثيل الفني العالي لواقع المهمّشين والمنبوذين والأماكن المقصاة والأزمنة المنسية وذلك الاحتكاك الواعي بأعنف الإشكالات المعرفية والوجودية وقضايا الإنسان المعاصر التي ليس لقاء الشرق والغرب الذي مثلته روايته الأشهر(موسم الهجرة الى الشمال إلا واحدة منها..

تقرض المنافي بموت الطيب صالح قلما آخر وتُسكت نبض قلب مرهف لكن ميراثه سيحكي لأجيال القراء لمدى لا يحده زمن أو يوقفه غياب.. فالطيب صالح ليس عابرا أو مارا بالمصادفة في مساحة الرواية والثقافة العربية وهاهم شخوص أعماله يلتمّون اليوم حول جسده الراحل وفكره وحكيه الباقي عبرهم وعبر قرائه ودارسيه.

عندما رحل الطيب صالح في الأربعاء الرمادي الحزين تذكرت بكاء الزين ليلة عرسه عند قبر الشيخ الحنين، كان والدا رمزيا له وبصوفيته ورقة مشاعره قدّم البديل للأب الغائب في الرواية و قام بتعويض آخر، هو عصب روايات الطيب صالح في الحقيقة. وإذا كان الدارسون يعرّفون الرواية بأنها فن التحولات فإن الطيب صالح يجعلها فن التعويض عن الحرمان والفقد، كما هو حال السرد العربي في أجمل متونه كألف ليلة وليلة،

وديعة الطيب صالح

برحيل الطيب صالح، الروائي والصحافي السوداني، يكون الأدب العربي قد خسر قامة ثقافية عالية، شهدت على علو مقامها إبداعاته الروائية، وخصوصا ذروتها التي بلغتها في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" التي كتبها في حي كامدن تاون، شرق لندن، في منفاه الاختياري/ الاضطراري، بعد قطيعة مع نظام الانقلاب العسكري بقيادة عمر حسن البشير عام ١٩٨٩ عندما أطبق قولته الشهيرة: "من اين جاء هؤلاء؟" التي أصبحت شعار الوسط الثقافي السوداني في تلك الحقبة.

عوّاد ناصر

رغم أن الطيب صالح لم يكن كاتباً صدامياً، ولا سياسياً راديكالياً، بل شخصية متوازنة ومعتدلة، بل "محافظة" كما يصفه عارفوه القريبون منه.

"موسم الهجرة الى الشمال" كرسته نجماً روائياً من دون بقية رواياته (عرس الزين ودومة ود حامد وضوء البيت وبندر شاه "بجزءيها") فألقت تلك الرواية بظلها، أو ضوئها، على بقية أعماله، على أهميتها، بل على شخصيته برمتها، واختزلته الى "روائي الواحدة" على غرار "شعراء الواحدة" وهو ما جعله يضيق ذرعاً بهذا الاختزال، وقد يكون هو السبب الذي جعله يتوقف عن كتابة الرواية لعقود لاحقة.. بما يشبه "التنكر" لـ"فعلته" حد البرم بها!

لم تزل طقوس وروائح تلك الرائحة عالقة في ذاكرتي عندما قرأتها شاباً في آخر سنة من دراستي الإعدادية في بغداد (الثانوية الجعفرية في مدينة الثورة) وها أنا أكتب عن كاتبها السوداني في لندن، فتكون الرواية، عبر المسافات البعيدة والزمن المضطرب، كتاباً عابرا للقارات، بين أوروبا وأفريقيا (موطن أحداثها) وحيث قرأتها، في جنوب غرب آسيا (العراق) وهذا أول دروس وديعة هذا الروائي الفذ، في أن الأعمال الحقيقية بلا وطن إلا عندما يدور الحديث عن جنسية كاتبها، حسب.

لم يزل رذاذ النيل الأزرق، وهو يخترق حقول السودان وريفه ومزارعه، يلفح وجهي، مثلما لم يزل خوار الأبقار يملأ أذني، ورائحة العشب الذي تفركه تحت أظلافها تلحس أنفي.. منذ أن قرأتها وقتذاك.. وهو درس ثان من وديعته في أن "محلية" الفن هي من ترفعه الى العالمية (ترجمت الرواية الى حوالي عشرين لغة) واختيرت بين أهم روايات القرن العشرين.. ونلكم هو، أيضاً، معنى "الأصالة" الخلاقة الذي يكرس عملاً فنياً على غاية الخصوصية والمحلية على أنه شريحة مقطوعة من جسد العالم التي مثّها "مصطفى سعيد" بطل الرواية الإشكالي، إبن الغرب، بريطانيا، "العاق" الذي نظر الى أوروبا عدواً استعمارياً، من دون أن يتنكر إليها قارة للحضارة المتقدمة.. فكان سباقاً في طرح مشكلة الالتباس الماثل: العلاقة بين الشرق والغرب، وبشكل أعمق ممن سبقوه الى هذا الإشكال من الأدباء العرب وأكثر جمالاً وإمتاعاً.

الدرس الثالث في وديعة الراحل المبدع هو أن على المبدعين أن ينتظروا موعد موتهم ليحتفلوا به لأنه الموعد الوحيد مع أوطانهم التي تتذكرهم فيه، على رغم أن الفضائية السودانية لم تأت على ذكر رحيل أو حياة أديب السودان الأشهر والأمهر!

هل كان هذا ارتباطاً بسياسة رسمية حظرت "موسم الهجرة الى الشمال" ومنعت تدريسها في جامعات وطنه سنوات عديدة، أم أنه مجرد كسل سوداني معهود أو خلل تلفزيوني تقني؟

أما الدرس الرابع، الأخير، في الوديعة، فهو درس عراقي حافل بالرد على المقولة المخزية بشأن "أدباء الداخل وأدباء الخارج" فالراحل الكبير عاش ومات في منفاه اللندني بينما رسم السودان بكفاح أهل القرية ضدّ مخطط اقتلاع شجرة معمرة رمز المكان والبشر من سكنة المكان في (دومة ود حامد) وأشواقه وأحلام طفولته وشبق شبابه (عرس الزين) وجرأة عجائزه (بنت مجذوب في موسم الهجرة الى الشمال).. وإدراك مثقفيه لمعنى الوطن والمنفى والهجرة والاغتراب، وكأن الانتماء الى الوطن يترسخ أكثر ويشتد عندما يغادره أبناؤه المبدعون. كان الطيب صالح نخلة معافاة جذرها في السودان وفرعها أخضر يمتد عبر القارات.. فالعالم وطن المبدع وعاصمته تلك الأرض الأولي على ضفاف النيل الأزرق... وكل الأنهار العربية.

الدرس الثالث في وديعة الراحل المبدع هو أن على المبدعين أن ينتظروا موعد موتهم ليحتفلوا به لأنه الموعد الوحيد مع أوطانهم التي تتذكرهم فيه، على رغم أن الفضائية السودانية لم تأت على ذكر رحيل أو حياة أديب السودان الأشهر والأمهر!

هل كان هذا ارتباطاً بسياسة رسمية حظرت "موسم الهجرة الى الشمال" ومنعت تدريسها في جامعات وطنه سنوات عديدة، أم أنه مجرد كسل سوداني معهود أو خلل تلفزيوني تقني؟

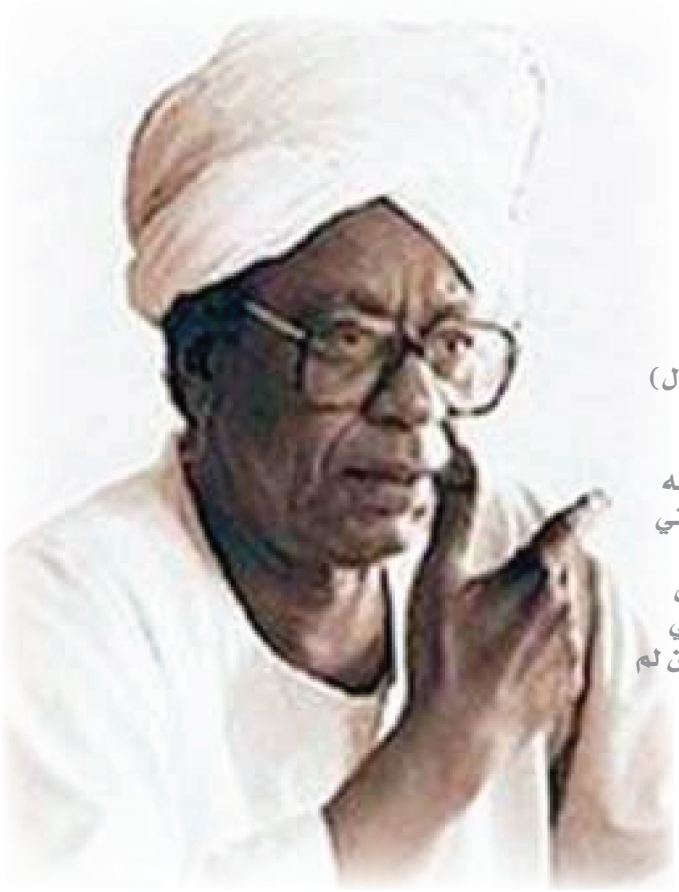

بعد ان قرأت له قبل سنوات روايته الفاتنة والاثيرة (موسم الهجرة الى الشمال) كنت شغفاً الى لقياه..وعدت اليه ثانية،وقرأت له فيما بعد (عروس الزين) و (بندر شاه) و(مريود) و(دومة ود حامد). وقرأت عنه الكثير..ثم شاهدت فيلم خالد الصديق المعد عن روايته(عرس الزين). انا اعرفه اذن، وعلاقتي به وطيدة،وانا فخور بصداقته. وفي بغداد التقيته عام ١٩٨٤ وسرني ان يكون وطني حديقة الادباء والمفكرين..ومثلما رسمت صورته في ذهني،كان الطيب صالح هادئاً، رصيناً،متواضعاً، تألفه ويألفك بسرعة..فتحاوره ويحاورك، ويفترض مسبقاً انك تعرفه..وافرحني افتراضه،فقد كنت اعرفه حقاً،واكاد اجزم انني افهمه وكان شاغلي من قبل ومن بعد ان اعرف اللاحق من اعماله،او بعضها ممن لم يتسير لي الاطلاع عليه.

حوار مع الروائي الراحل الطيب صالح عن الابداع والاحساس بالاختلاف

العراق أبدع مثيولوجيا إنسانية رائعة

طمأنني،معترفاً بأن ما اشرت اليه هو كل انجازه،وهو ساع الان لانجاز الجزء الثالث من روايته (بندر شاه).. ان عمله - المستشار الاقليمي للاتصال بالدول العربية في منظمة اليونسكو - يأخذ القسط الاكبر من اوقاته. شربنا قهوتنا معاً..وانصرفت افكر في اسئلة كثيرة اجمعها في ذهني،فيما وضع اصبعين على فمه كما هي عادته،وراح يتحدث في تأن وانتباه عميقين..×

سألته عن معماره الفني في الكتابة - على الرغم من احساسي الداخلي بان تحديد هذا المعمار من مهمة الناقد لا المبدع،غير انني اردت ان اتعرف على خطته في العمل وعلى وجه ادق اريد ان اعرف الحالة المسبقة لانجاز الكتابة عنده -

- كلمة المعمار توحي ان يكون الكاتب في وضع خطة..والكتابة في احسن حالاتها،عملية توازن بين ماهو مدروس ومخطط، واشياء تأتي عفوا، لكن قدر الامكان احاول في ذهني وقبل ان اكتب ان اكون عارفا والى حد ما بمسيرة الاحداث والخطوط العريضة للشخصيات،وافترض بعداً فلسفياً وعقلانياً،واطرح قضية بيني وبين نفسي،بحيث تكون الرواية في النهاية اما تأكيداً للافتراض او نفياً له او تتركه معلقاً.

× افتراضك في (موسم الهجرة الى الشمال) هو ان العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية علاقة صدامية..أليس كذلك؟

- انه افتراض يبدو بسيطاً الآن.. ولكن حين كتبت (موسم الهجرة) كان السائد هو انها علاقة رومانسية،وكل الاعمال الروائية التي طرحت قضية العلاقة بين اوروبا والعرب قدمتها على انها علاقة رومانسية..

وفي (موسم الهجرة الى الشمال) احسست ان العلاقة قائمة على التصادم والمجابهة بالمعنى الحضاري.. واظن ان الرواية عندما اكتملت اثبتت لي صحة الافتراض..وفي العمل الذي اقوم به الآن..افترض ان الماضي والمستقبل في تآمر مستمر ضد الحاضر،وحتى الآن لا اعرف ان كان هذا الافتراض صحيحاً ام لا؟ وهذه الطريقة تعطي العمل نوعا من الوحدة التي يمكن ان تسميها (المعمار).

× الا تري بأن (موسم الهجرة الى الشمال) تلتقي مع (قنديل ام هاشم) ليحيي حقي و (الحي اللاتيني) للدكتور سهيل ادريس..وذلك بالتأكيد على الجدل القائم بين الحضارة العربية بتقاليدها الراسخة،والثقافة الغربية المنطلقة في اجواء مختلفة؟

- روايتي لاتلتقي مع هاتين الروايتين،وهذا لايعني انها افضل..ولكن كما قلت لك، تلك الروايات افترضت بان هذه العلاقة رومانسية،لأننا في تلك المرحلة من تاريخنا لم نكن قد دخلنا في معترك صدامي واضح مع اوروبا.

هناك وهم من جانبنا ومن جانبهم وخاصة بعد ان قرأوا (الف ليلة وليلة) ويمكن الرجوع الى معرفة مدي هذا التأثير بالعودة الى كتاب د. محسن جاسم الموسوي (الوقوع في دائرة السحر - الف ليلة وليلة في النقد الادبي والانكليزي ١٧٠٤ - ١٩١٠)،وقد بلور د.ادوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) ما قلته بشكل واضح،فهو يقول(الغرب صاغنا على الصورة التي يريدها) انه لايريد ان ينظر الينا نظرة واقعية وكما نحن..وانا اتفق معه..

× هل تأثرت به؟

- اعجبت جداً بالكتاب،ولكنه صدر منذ سنوات بعد ان نشرت (موسم الهجرة الى الشمال).

× وتأثيرات الأخرين..؟

- فرانز فانون - زنجي من المارتيك، عمل طبيباً في الجزائر ايام الاستعمار الفرنسي، فانضم الى الثورة الجزائرية واصبح فيلسوفاً،وقد عينه الجزائريون سفيراً لبلادهم في الخارج بعد التحرير..

روايتي لاتلتقي مع هاتين الروايتين،وهذا لايعني انها افضل..ولكن كما قلت لك، تلك الروايات افترضت بان هذه العلاقة رومانسية،لأننا في تلك المرحلة من تاريخنا لم نكن قد دخلنا في معترك صدامي واضح مع اوروبا.

هناك وهم من جانبنا ومن جانبهم وخاصة بعد ان قرأوا (الف ليلة وليلة) ويمكن الرجوع الى معرفة مدي هذا التأثير بالعودة الى كتاب د. محسن جاسم الموسوي (الوقوع في دائرة السحر - الف ليلة وليلة في النقد الادبي والانكليزي ١٧٠٤ - ١٩١٠)،وقد بلور د.ادوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) ما قلته بشكل واضح،فهو يقول(الغرب صاغنا على الصورة التي يريدها) انه لايريد ان ينظر الينا نظرة واقعية وكما نحن..

× تعني كتابه الذي ترجم الى العربية بعنوان:(معذبو الأرض)؟

- نعم،وكذلك كتابه (وجوه سوداء واقنعة بيضاء) اللذين شرح فيهما بطريقة جديدة العلاقة السايكولوجية بين المستعمِر والمستعمَر..كما تاثرت بكتاب (بروسبيرو prospero وكاليبان caliban) لكاتب ايطالى لايحضرني اسمه، وفي مسرحية العاصفة لشكسبير، يمثل propero القّوة التكنولوجية للاستعمار.. في حين كان (ايريل)مثلا يتعاون مع المستعمر..وكان كاليبان على الرغم من قبحه يمثل القوة الوطنية الرافضة للتعاون مع المستعمر،وهذا من وجهة نظر الكاتب.

من هنا نتبين ان العمل الروائي لابد له ان يكون قائما على دراسة وبحث..وهو لايتخذ الافتراضات على غير هدى،فلا بد للكاتب من الالمام بالموضوع الذي يعالجه روائيا.

معارضة شكسبير

× مادمنا قد تحدثنا عن شكسبير،اتساءل عن اوجه العلاقة بين بطل روايتك (موسم الهجرة الى الشمال)- مصطفى سعيد وبين (عطيل) شكسبير..باعتبار ان كلا الشخصيتين يمارسان فعل القتل؟

- التشابة بين القاتلين وفعلهما عن قصد وطوال الرواية،هناك اشارات لـ (عطيل) وقد عارضت شكسبير،كما عارض احمد شوقي ابن زيدون والبحتري..

شكسبير قدم رجلاً عربياً في اغلب الظن وادخله في مكان يمثل قمة الحضارة الاوربية في ذلك الزمان مدينة البندقية، وجعله قائداً للجيش.. مثل العربي الذي يصبح مارشالا في الجيش الفرنسي..وقد قتل عطيل - وديزدمونه من دون اسباب مقنعة على الرغم من الاشارة الى الاختلافات العرقية والحضارية..

مصطفى سعيد ايضا ذهب الى حضارة اوربية وتبوأ مراكز عليا وحقق لنفسه بعض الاهمية وتزوج هناك..وقتل لأسباب واضحة..اعتقد انها الاسباب التي دفعت عطيل ايضا للقتل.

× اليس هذا تحاملاً على عبقرية شكسبير؟

- اعرف ان هذا تطاولاً على شكسبير.. طبعاً فكرة الصراع الحضاري فكرة معاصرة لم تكن معروفة أيام شكسبير.

× هل تعتقد انك عبرت عن جيلك والاجيال التي بعدك؟

- انا لا اجزم انني اعبر عن جيلي او اجيال لاحقة، انا اعبر عن رؤيتي للعالم في اوقات محددة، ومن منطلقات محددة، وهذه الرؤي لا اعلم هل كانت لها مدلولات اكثر من ذلك ام لا؟ لأن هموم الاجيال يعبر عنها مجموعة ضخمة من الناس.. كتاب رواية وشعراء وكتاب مسرح ومفكرين.. يفترض ان يكون العلم مسانداً للأدب والفن، والقصيدة قد تنير الطريق لكاتب في علم الاجتماع، وكتاب في التاريخ قد ينير الطريق لروائي.. كل مبدع يضيء مساحة،والاضواء تتجمع وتصبح ضوءاً كبيراً..

لايمكن القول ان المتنبي قد عبر عن هموم عصره..إنه عبر عن هموم ذاته بعبقرية فذة..وربما كان المعري اوسع رؤية منه مع انه ليس أعظم شاعرية.. كان للمعري حس بما يدور حوله،في حين كان المتنبي مشغولاً بنفسه ووضعه الخاص..

× أين تضع قول سارتر وهو يصف الكاتب بأنه يمثل ضمير العصر؟

- الكاتب بين مجموعة تمثل ضمير العصر..التشكيليون والادباء والمهندسون والمعماريون..وليس الكاتب وحده..انهم جميعا يحملون المسؤولية حسب طبيعة عملهم..

× في اعمالك الروائية هناك شاغل اساس هو المثيولوجيا بمفهومها الانساني المحلي وذلك لغرض استبطان

انني ادخل الى العمل الابداعي بافتراضات عقلية او فلسفية كما قلت من قبل فلا اريد ان امتع القارئ او اسليه..اريده ان يفكر،واظن في النهاية ان القيمة لابد من توفرها..
انني لا اقدم اطروحة فلسفية يكون فيها الفكر البحت..ان الفكر في العمل الابداعي مثل الماء الذي تتشرفيه بعض الصخور التي تمتص المياه،داخل حنايا الصخر..في الرواية انطلق من الايحاء وصولا الى الفكر.

الشخصية.. فهل تشكل سمة بين ماهو ثابت وماهو متغير؟
ـ المثيولوجيا ليست تاكيداً على الانسان المحلي،انا اتحدث هنا عن وضع خاص اريد تعميمه..انا احاول خلق مثيولوجيا فعلا،والسبب هو طبيعة التكوين والبيئة التي نشأ فيها.
لو صدقنا مع أنفسنا،لأدركنا بالتأكيد اننا نعيش في عالم مثيولوجي لافت للنظر..ولم ننظر للعالم نظرة ديالكتيكية او حتى ديكارتية لها قدرة خارقة على تحويل الاشياء الى رموز وهذا رافد من الروافد التي يستفيد منها الكاتب والفنان.. ان المجتمع السوداني، والبيئة التي عشت فيها، بيئة لاتؤمن بالخرافات ولكن لديها القدرة على ان تنظر الى الكون من منطلق مثيولوجي وان شئت قل رمزياً،وانتم في العراق ادري بهذا،فان العراق قد ابدع مثيولوجيا انسانية رائعة..ان (عرس الزين) لم تكن بالاسلوب الذي كان سائداً في أوائل الستينات..البطل فيها لاتنطبق عليه صفات البطولة بالمعني العادي..العالم تحدث فيه معجزات وبركات..ولم يكن الادب يقبل بهذا ولذلك كانت هذه الرواية تشكل رد فعل لما كان سائداً.
× وكيف تحدد خلق الاسطورة في (دومة ود حامد)؟
ـ الاسطورة إما امر كان واقعاً وتحول الى حلم او امر محتمل الوقوع. ان وصف الشعراء العرب الجاهليين للاطلاع مهم جداً..فطرفة بن العبد يقول:
لخولة اطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
ويقول زهير بن ابي سلمي:
ديار لها بالرقمتين كأنها
مراجيع وشم في مناشر معصمي
وهذا البناء او الحقيقة تحول الى شيء آخر..ومن الابيات الرائعة لأبي نواس قوله:
فأتتك في صورة تنازعها البلي فأزالهن وانبت الاشباحا.
وهذا ماحدده فرويد في مفهومه للاسطورة حيث ذاب ماهو حقيقي وتحول الى شيء آخر،وهذا بكل تواضع ما اريد تقديمه..والكاتب العربي اليوم لايعمل في فراغ،انه حلقة في سلسلة طويلة من الناس الذين جاءوا قبله ـ واعتقد بأن المفروض ان يكون متحاوراً ومتآنساً مع الاصوات التي انطلقت قبله.
× البعض كتب بأنك لم تكن موفقاً في كتابة حوار (بندر شاه) و (مريود) باللهجة السودانية المحلية التي لم تكن مفهومة لأبناء عدد من البلدان العربية.. ما تعليقك؟
ـ لديّ اسبابي في استعمال العامية، مع الايمان التام والاقرار بأن العربية الفصحي هي لغة الادب والفكر،وقد وقعت أمام مشكلتين:اما ان استعمل لغة مفهومة لعدد أكبر من الناس وهي الفصحى وافقد ابعاد الشخصية..او أقدم العكس.. وقد فضلت تقديم ابعاد الشخصية..بعد ان وجدت صعوبة في جعل شخصية (الزين) تنطق بالفصحى. واعتقد ان اللغة العامية ليست مشكلة تصعب قراءتها..فنحن نقرأ باللهجات المصرية واللبنانية وغيرها.. لم لانقدم حوار الناس كما هو؟ انه ليس موقفا ادافع عنه،ولكن شخصية اردتها ان تنطق بلسانها..وقد استعملت هذه اللهجة فيما بعد بدرجات أقل..

الحرية في امريكا

× تحولت روايتك (عرس الزين) الى فلم سينمائي من اخراج خالد صديق، فما رأيك بالفلم مقارنة بالنص الروائي؟
ـ لقد بذل المخرج جهداً كبيراً في فهم البيئة السودانية، واعتقد انه نجح الى حد كبير في تقديم الفكرة..والكاتب ليس مسؤولاً عن الفلم او المسلسل التلفزيوني، ذلك ان الذين يعملون في الافلام والمسلسلات يستخدمون وسائل إيصال أخري..المهم ان يضمن الكاتب تقديم جوهر عمله بلا تشويه.. هذه نظريتي..وانا لم اقرأ السيناريو.. والناس أحرار في تقييم الفلم..
× كتبت رواية (موسم الهجرة الى الشمال) ضمن رحلة زمنية تغيرت معالمها الآن..فهل تعتقد انها رواية مرحلية؟
ـ لقد كتبت (موسم الهجرة الى الشمال) للتعبير عن مرحلة تقع بين الحربين العالميتين،وتتحدث عن فترة لم تكن فيها ارادتنا فاعلة. لقد كنا خاضعين للاستعمارين البريطاني والفرنسي،ولم يكن هناك (كيان صهيوني) وكانت الحضارة الغربية جذابة..وكانت امريكا تمثل عند العرب دولة تعبر عن وجه الحرية وقد توضحت الامور بشكل آخر اليوم..
× عشت لفترة طويلة خارج المجتمع الذي نشأت ضمن بيئة قائمة على الزراعة والتربية الدينية..فكيف تعاملت مع الوطن من الخارج؟
ـ ليس المهم في الكتابة الاقامة في مكان،المهم ان يحمل الانسان المكان في مخيلته..والا تحدث قطيعة تامة مع الوطن،فاذا دامت الصلة قائمة،فان الكتابة غير مستحيلة..فلو اراد الانسان ان يكون سياسياً وهو خارج بلده فذلك صعب.
هذه مهمة آنية واضحة المعاني لكن الروائي والشاعر يمكن ان يكتب في اي مكان،ويسترجع اي عنصر..ان التوق والحنين حافز مهم..لقد بدأت بأستحضار المكان الذي بعدت عنه..لقد كتبت معظم اعمالى خارج السودان، والقليل منها داخل السودان.
وهذا لايعني انني مشغول بالماضي، انني مشغول بالحاضر والمستقبل.. وان استرجعت الماضي فلأنني اريد ان اعبر عن افكار تتصل بالحاضر والمستقبل.. ان (عرس الزين) مثلاً قدمت صورة لمجتمع متكافيء ومتناسق..ثم تغير الحالَ فيما تليّ من اعمالى.
× لايخلو اي عمل ادبي وفني من الجذور الفكرية..فالى اين تمتد الجذور الفكرية لأعمالك الروائية؟
ـ انني ادخل الى العمل الابداعي بافتراضات عقلية او فلسفية كما قلت من قبل فلا اريد ان امتع القارئ او اسليه..اريده ان يفكر،واظن في النهاية ان القيمة لابد من توفرها..
انني لا اقدم اطروحة فلسفية يكون فيها الفكر البحت..ان الفكر في العمل الابداعي مثل الماء الذي تنشرفيه بعض الصخور التي تمتص المياه،داخل حنايا الصخر..
في الرواية انطلق من الايحاء وصولا الى الفكر.
× عصر السرعة..هل تعتقد ان زمن الرواية قد انتهى؟
ـ يخيل لي بأن الفن الروائي مازال قائماً..حتى في انكلترا وفرنسا..
الفن عموما سيظل الى زمن طويل معبراً عن الافكار..وما زالت هناك اعمال روائية تقرأ بشغف وهناك رواية للكاتب الانكليزي باول بعنوان (رقص على موسيقى الزمن) وتقع في ١٥ جزءاً تقرأ باهتمام..وفي اوروبا خدم التلفزيون الرواية ولم يضرها..فأعمال توماس هاردي مثلا حين تقدم تلفزيوناً لايكتفي المشاهدون بمتابعة المسلسل بل يريدون قراءة العمل الروائي المكتوب.
× انت من الروائيين المحظوظين الذين اهتم النقاد باعمالهم..هل ترى بأن النقد قد اثرى تجربتك الروائية؟
ـ النقد يخضع للتفسير..وعندما انتهى من كتابة عمل روائي يكون دوري قد انتهى،وليس من المستحب ان الاحق النقاد في آرائهم.. العمل الابداعي قائم حتى لو اساء النقاد فهمك..الناس يفهمون بطرق متعددة،إنهم ليسوا عيوني وأفكاري..وكل نقد هو إثراء للعمل.
× الاغتراب بمعناه الفلسفي ـ هل شكل لديك قضية؟
ـ الاغتراب قديم وقد اصبح له الآن وقع جديد..انه قائم في شعرنا منذ النابغة الى يومنا هذا..وهو من الخصائص العظيمة للمتنبي في بلورته للروح المغتربة..يقول:
غني عن الاوطان لاتستخفني الى بلد سافرت عنه إياب
وعن زملان العيس ان سامحت به وإلا ففي اكوارهن عقاب
وهو تعبير عن التفرد الدائم..يقول المتنبي:
ولله سيري ما أقل تئية عشية شرقيَّ الحد الى وغُرب
عشية أجفي الناس بي من قلوته وأهدي الطريقين التي اتجنب
ان من طبيعة الفنان الاحساس بالاختلاف والتفرد..لأن لديه احساس من نوع خاص سواء بقي ام رحل. لقد اعتدت على التنقل ضمن حالات مختلفة من الوعي..
السؤال يفترض عالماً مستقراً،والعالم لم يعد مستقراً..نحن الآن في حالة غربة،وتنقل،المهم ألاّ تضيع منا الاسس والمنابع الحقيقية،لقد كان جيمس جويس شيخ المغتربين..يقول:(عدة الشاعر هي: المنفى والعزلة والمكر) ويقصد بالمكر القدرة على البقاء،هذه الفكرة بلورها بريشت..
أهم شيء بالنسبة للمبدع هو ان يحافظ على نفسه لأنه اذا انتهى لم يبق هناك إبداع..
× الا تجد انك تحتفي ببيئتك في (عرس الزين)؟
ـ نعم لقد كتبت (عرس الزين) احتفاءاً بالبيئة التي عشت فيها واحببتها وأردت ان أحتفي بها فنياً..
ان الزين رمز صنعته البيئة،انه ليس من لحم ودم ولكن المجتمع هو الذي أضفى عليه صفات وكان هو القطب، والرمز،وكان مركز الدائرة..لقد طورت الفكرة في (ضوء البيت) وقد صنعه المجتمع من لاشيء..اعطيته الاسم لأنه جاء بلا هوية وبلا ارض..والمجتمع هو الذي خلق الرمز..
× قرأت روايتك (بندر شاه) واعتقد بأنها فنطازيا تقدم حالة تنبؤية عن الصراع بين الحاكم والمحكوم..هل تؤكد مثل هذا الصراع فعلاً؟
ـ أؤكده فعلاً، وانا مسرور لانتباهك وتحديدك هذا الفهم للرواية، واود ان أضيف انني اعني بكلمة (بندر) بمعنى (المدينة) و (شاه) اعني بها (الحاكم).. المدينة والحاكم، من القضايا الكبرى عندنا، والرواية،من بعض وجوهها محاولة لاستقصاء هاتين القضيتين والمثيولوجيا واضحة فيها، والافكار سواء حصلت في الماضي ام المستقبل.. يبقي مفهوم الزمن عندي فيها غير قائم على تسلسل منطقي،وقد يكون قد حصل لأيام او لسنوات..انني احاول تقديم عمل ملحمي.

× ان شخصيات ملحمة (هومر) من الفلاحين في حين انهم لدى شكسبير في (الملك لير) من البرابرة..كيف تقدمهم انت؟
ـ الخيال هو الذي يجسد الشخصيات.. ولم يكن شيخ بني عبس زهير أقل من الملك لير..انني اريد ان انقل الشيء من الخاص الى العام..وعندما نثق بأنفسنا يمكن ان نقدم اشياء بالمستوى نفسه.
ان هذه الشخصيات التي ضخمت في الادب اليوناني موجودة عندنا بأحجام كبيرة لها امتداد مثيولوجي.
× تعامل ماركيز في (مائة عام من العزلة) مع المثيولوجيا..هل ترى بأن البعد المثيولوجي عند العرب له بصمات مماثلة؟
ـ اعتقد انهم أخذوا من العرب هذا البعد المثيولوجي..وفي (مائة عام من العزلة) اتبع ماركيز الاسطورة التي استقاها من الادب العربي ومن الاندلس بالذات وللروائي بورخس قصة افاد من الخليفة المعتصم بشكل واضح،لذلك يمكن للادب العربي ان يحمل سمة عالمية..وهو يعبر عن وجدان يشغل مساحة واسعة من الكرة الارضية،وبهذا المعني..نحن عالميون بصرف النظر عن اعتراف الآخرين..وقد قدمنا اشياء لاتقل عن ماانتجه غيرنا.
ان الشعر العربي اعظم شعر انتجته الانسانية ـ فيما اعلم ـ لكننا نبخس انفسنا.
× نعود الى الاستشراق وأهدافه المتناقضة..لماذا؟
ـ من الثابت تاريخياً بأنه مهما كانت اهداف الاستشراق،فأن بعض اهدافه كانت لخدمة الاستعمار..غير ان كل المستشرقين المخلصين قد انتهى بهم الامر الى تفهم وحب للثقافة العربية ونضرب مثلاً بـ (ماسنيون) الذي كان ضابطا في الجيش الفرنسي،وانتهى به الامر الى ان عشق الحلاج وقدم كتابا مفيدا عنه كما قدم اضافات مهمة في التصوف.
و (جاك بيرك) كان من كبار موظفي الادارة الفرنسية في شمال افريقيا وقد انتهى به المطاف الى ان صار من اكبر المحبين للعرب،ومنح جائزة بغداد وقام بترجمة القرآن الكريم الى الفرنسية،وكذلك (جب) استاذ الادب العربي في جامعة اكسفورد،ومن شيوخ الاستشراق الانكليزي..
ان لبعض المستشرقين نوايا حسنة،فعندما تعمقوا في الثقافة العربية احبوها،لذلك ينبغي ان لانضيع الوقت في التحقق من نوايا البشر،هناك مستشرقون سيئون فعلاً مثل بيرنارد لويس الاستاذ السابق في جامعة لندن.. ثم ذهب الى امريكا واصبح من دعاة الصهيونية..
ان د.ادوارد سعيد في كتابه عن (الاستشراق) قدم مفاهيم جديدة ومهمة.
× ومتى تخرج من دائرة صمتك..التي طال آمدها؟
ـ المشكلة هي مشكلة وقت حسب..انا لا اكتب وانا اعمل وامارس مهنة محددة.. احب ان اعطي المهنة حقها كاملاً..انا منظم الى حد معقول،ولكنني لست منظماً مثل نجيب محفوظ الذي يقال انه يجلس في ساعة محددة كل يوم ليكتب..
ان مهمات عملي تتناقض من منطق الكتابة..لذلك فانني اكتب في العطل.

هذا الحوار أجري مع الروائي الراحل الطيب صالح في بغداد قبل سنوات وبقي ضمن أرشيف الكاتب العراقي حسب الله يحيي

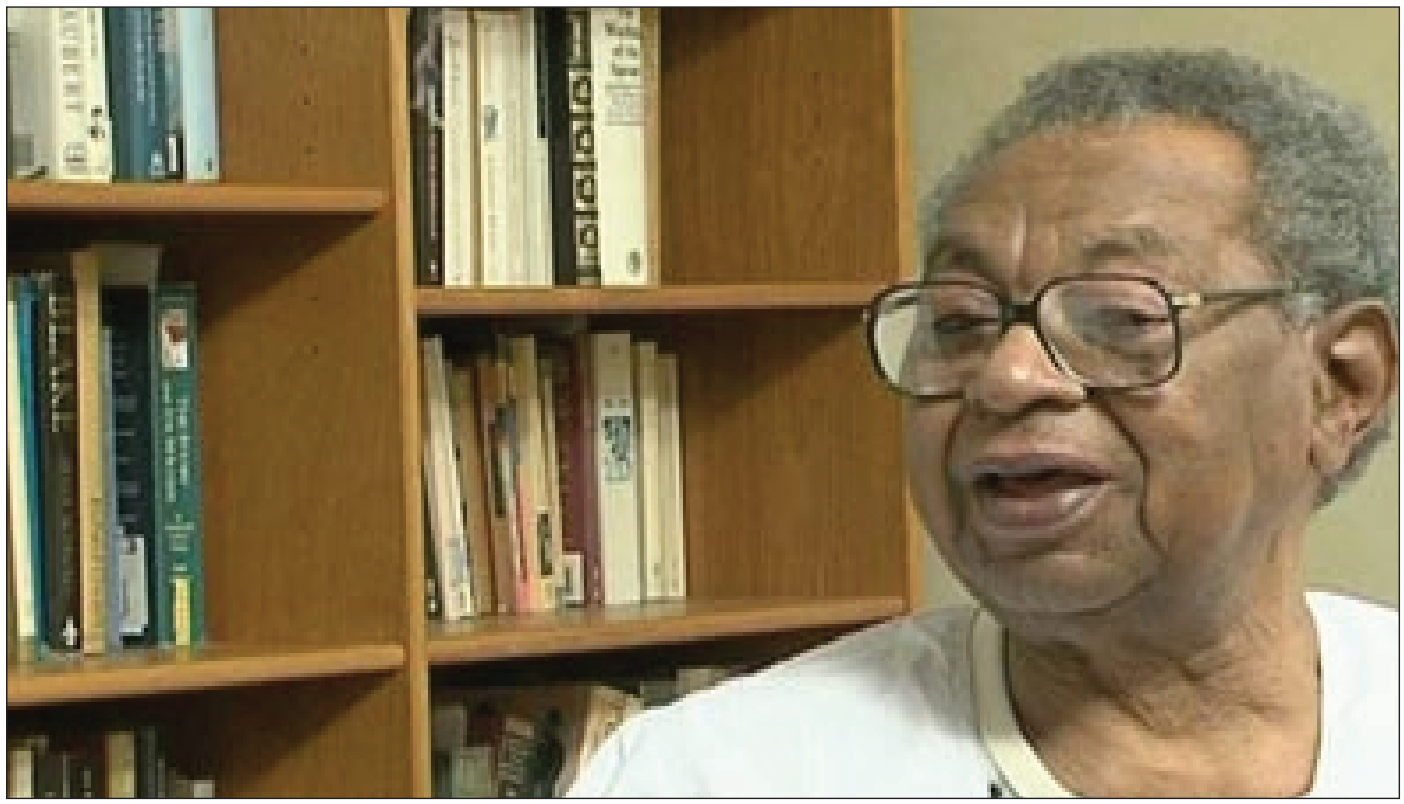

الطيب صالح وموسم الهجرة إلى الشمال

تعرض رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للراحل "الطيب صالح" التوتّر العميق بين الشرق والغرب. ومن أجل بلورة هذه الفكرة لجأت الرواية إلى تقنيات سردية كثيرة لتجسيد هذا الموضوع الذي ظل أحد شواغل الرواية العربية منذ نشأتها الأولى، لكن الطيب صالح أضفى على القضية طابعا مأساويا حينما غلّف العلاقة بين الرموز الحضارية بالعنف، والموت، فتخطّت الشخصيات مستواها النصي المباشر لتّتصل بمجالات الصراع المتوتّر بين الشرق والغرب.

د.عبدالله إبراهيم

جسّد مصطفى سعيد، بطل الرواية، طبيعة الاختلاف بين عالمين اصطرعا بكل الوسائل لقرون طويلة. وكان المؤلف قد أشار إلى أن هذه الرواية تطرح مشكلة "الهوية" أي "مشكلة علاقتنا بالعالم الخارجي، خصوصاً أوربا، ومشكلة نظرتنا إلى أنفسنا". والمتن السردي للرواية يعنى بهذه القضية، من جانبها الأول، وهو علاقة "الأنا" بـ"الآخر" وعلاقة "الأنا" بنفسها وهو جانبها الثاني، فحكاية مصطفى سعيد تتصل بالجانب الأول، فيما حكاية الراوي تتصل بالجانب الثاني، إنهما وجها مشكلة "الهوية" التي جرى تمثيلها سرديا في هذه الرواية بأبعادها الموضوعية المتصلة بالآخر، وبأبعادها الذاتية المتصلة بـ"الأنا".

طرحت قضية الصراع في "موسم الهجرة إلى الشمال" على خلفية تاريخية عاصرت ظهور الرواية، وأثرت فيها كموجّه خارجي، مثل حركات التحرّر، والتمرّد، والعنف المتبادل التي اندلعت في منتصف القرن العشرين، وخلال العقود اللاحقة ضد السيطرة الاستعمارية، وبخاصة في إفريقيا التي تشكل الفضاء العام الذي تتفاعل فيه الأحداث المتخيلة للرواية، وكان العنف بأشكاله المتعدّدة هو الوسيلة المهيمنة في الصراع بين المستعمر والمستعَمر، إنه عنف زرعه الأول في نفس الثاني، أو أسهم في إيقاد شعلته؛ لأنه رأى أنه الوسيلة الوحيدة التي بها يتخلّص من المستعمر.

قال "سَارتر" في تقديمه لكتاب "فرانز فانون "معذّبو الأرض" – وهو شأن رواية الطيب صالح كُتب على خلفيّة نشاط حركات التحرّر الوطنية، ولا يفصل بين صدورهما إلا سنوات قليلة– "إن علائم العنف لا يستطيع لينُ أن يمحوها، فالعنف وحده هو الذي يستطيع أن يهدمها؛ ذلك أن المستعمَر يُشفى من عصاب الاستعمار، بطرد المستعمر من أرضه بالسلاح، فهو حين يتفجّر غضبه يستردّ شفافيته المفقودة، بذلك يعرف نفسه بمقدار ما يكون قادراً على صنعها "ذلك أن "فانون "نفسه قد افتتح كتابه بالقول "إن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما".

استثمر مصطفى سعيد مفهوم العنف، واستخدمه كفعل فردي، وكممارسة جنسية ثأرية تتنكر وراء إشباع رغبات غامضة لها دلالات متموّجة، لكنه عنف يريد به الشفاء من جرح. وكل ألفاظ العنف، وما يتصل به من دلالات تتكرر كثيرا في حديث مصطفى سعيد، وتزداد أهميتها في وصف علاقته بالنساء الأوربيات، وما أن يبلغ ذروة ثأره بقتل جين مورس، إلا ويخلو الخطاب من كل ماله علاقة بالعنف.

في الغرب شعر مصطفى سعيد بأنه الغازي الذي انتشى بنصره لأنه ردّ العنف بالعنف، فبلغ الأمر حدّا تماهى فيه مع شخصية كتشنر، لكنّه سرعان ما استجمع سلسلة الممارسات العنيفة التي ألحقها "الأوربيون" ببلاده وحضارته. استعاد مصطفى سعيد شفافيته بممارسة العنف؛ لأنه كافأ العنف بالعنف، فرحلته الفردية إلى "الشمال" كانت مدفوعة بهاجس الثأر العنيف، وهي ردّة فعل للتورط الغربي الجماعي في السيطرة على بلاده، وخفض قيمته الإنسانية، وإقصاء فعله الحضاري. لاحظ "إدوارد سعيد" أن مصطفى سعيد يقوم بدور معاكس لما قام به "كورتز" في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، فكوارتز "يرحل إلى "الأقاليم السوداء" فيما يرحل مصطفى سعيد إلى "الأقاليم البيضاء". وهذا ليس الفارق الوحيد بينهما، إنما الفارق المهم هو أن الأول شأنه شأن "روبنسن كروزو" في رواية "ديفو" يرمز إلى الرجل الأبيض الذي يؤمن بنسق من القيم الفكرية والدينية والأخلاقية التي توظف لإنقاذ "الآخر" من خموله وتخلّفه، وتحت الوهم الخادع بتغيير وضعية "الآخر" يتم تطبيق برنامج السيطرة الاستعمارية بوجوهه الثقافية السياسية والاقتصادية، أما الثاني فلا يسكنه هاجس التفوق، إنما هو يدفع بالعنف عنفا كان اختزله إلى كائن سلبي، فرحل طالبا بالثأر في عقر دار الغازي الأصلي، كان يريد أن يردّ على أولئك الذين أرادوا مسخه حينما علّموه كيف يذعن لهم ليقول "نعم" بلغتهم.

أصبح الغرب بالنسبة لمصطفى سعيد تجربة ذهنية راح يستعيدها منفردا لوحده، حينما يعود متعبا من مزرعته في السودان، فجعل ما تبقى من حياته مكرّسا للهروب من "حالة" الغرب، والاتصال سرا بذكراه، وعلى نحو مماثل بالضبط لما كان يقوم به في غرفته "اللندنية" ولكن بمعاني مختلفة تماماً، وهنا يدخل المكان ليعمّق المنحى الرمزي للأحداث، ولشخصية مصطفى سعيد على حد سواء؛ فغرفته اللندنية فضاء شرقي في قلب الحاضرة الغربية، وغرفته السودانية فضاء غربي في عمق الشرق، والغرفتان وظّفتا في النص لغايتين مختلفتين.

ناقد واكاديمي

استثمر مصطفى سعيد مفهوم العنف، واستخدمه كفعل فردي، وكممارسة جنسية ثأرية تتنكر وراء إشباع رغبات غامضة لها دلالات متموّجة، لكنه عنف يريد به الشفاء من جرح. وكل ألفاظ العنف، وما يتصل به من دلالات تتكرر كثيرا في حديث مصطفى سعيد، وتزداد أهميتها في وصف علاقته بالنساء الأوربيات، وما أن يبلغ ذروة ثأره بقتل جين مورس، إلا ويخلو الخطاب من كل ماله علاقة بالعنف.

غاب الطيب صالح لكن غيابه الأدبي تم قبل ذلك بعقود واذا استمعنا لبعض صحبة الطيب فهمنا انه لم يكتب الا تحت الحاح. اذا عجل الطيب الى هجر الأدب فقد هجره غير آسف، قابلته فلم أجده شقيا بما فعل شأن كثيرن خذلتهم مواهبهم وتخلت عنهم النعمة، ظل الطيب أنيسا محدثا وظل خزانة للأدب القديم وراوية للشعر كأن السحابة التي أمضاها ﻓ دنيا الأدب لم تنتزعه من مكانه الأولي، مكان المحدث والراوية. مع ذلك لا يجهل عارف بالأدب أيا من عناوين الطيب الخمسة او الستة، لم يكتب كثيرا لكن القليل الذي كتبه بقي جميعه ﻓ الذاكرة وقلما تسنى هذا لكاتب من جيله.

الطيب صالح رواية المستقبل

عباس بيضون

كانت «موسم الهجرة الى الشمال» حدثاً مدوياً في الرواية العربية وقلما كان لرواية سواها هذا الحظ. لقيت «عرس الزين» حفاوة حقيقية لكن الناس ظلت تتحدث عن «موسم الهجرة الى الشمال». أما «بندر شاه» ومريود فكانا روايتين لكاتب «موسم الهجرة الى الشمال». هل كان الطيب الصالح كاتب الرواية الواحدة. أم ان الجمهور الذي اقتحمته «موسم الهجرة». وفجرت فيه تطلبا جديدا كان مهيأ لذلك، ولم يكن مهيأ لأكثر منه. لقد سمح لرواية في عنف موسم الهجرة وصداميتها ان تحتل مخيلته لكنه بالتأكيد وجد فيها جوابا راديكاليا. كانت دراماتيكية الرواية تناسب وعيا تاريخيا صراعيا وديناميكيا اوعزت به الموجة القومية. اما الروايات التي تلت موسم الهجرة فقد سبقت تقريباً وعي القارئ. كانت احتفالية وملحمية عرس الزين وسحرية أو فانتازية «بندر شاه ومريود» قفزة اكثر مما يحتمل. كانتا (الروايتان اللتان كتبتا كجزء من ثلاثية لم تظهر فيها ثالثة) فتحا روائيا بحق ولحظة في الرواية لم تتأخر عن العالم بل وجدت، بدون جهد او تقصد، فيه، لكن القارئ لم يكن بهذا التطلب. لم يكن مستعدا لرواية بلا موضوع لكنها كما يدل اسمها (عرس الزين)، نوع من عيد أدبي، من سرد ملحمي لا يتغذى من أي شيء سوى من شاعريته الخاصة، ومن قدرته على انشاء الواقع وعلاقاته في تشكيل فسيفسائي. لم يكن القارئ مستعدا بعد أيضا لاستعارات كبيرة كالتي في «مريود» و«بندر شاه»، اذا كانت لحظة الصراع العنيف قد فتنته في «موسم الهجرة» فقد فاته ان يلحظ الانذار القدري الذي فيها والاستحالة التي تنتهي بالاختفاء والغياب وربما العودة الى مصدر أول خيالي. لقد كان هذا فوق تطلبه.
الأرجح ان المديح الرائع في عرس الزين شاقه لكنه لم يلحظ ما فيه من هشاشة ومن مصالحة وهمية. لم يلحظ ان كل ذلك يحمل انذارا بنهاية عالم ما لبث ان انهار في استعارة رائعة في بندرشاه ومريود. استعارة يخرج فيه الاولاد على الآباء، قبل ان يُسحقوا بين الأجداد والأحفاد. لقد كان كل ذلك، من «موسم الهجرة» الى «مريود» نوعا من مرثية توراتية، مرثية عالم يتحول فيه العنف الى سند روحي قبل ان يغرق في الظلمات وتخرج اشباحه من القبور معلنة انهيار الواقع واغتيال الحاضر.
أصدر «الطيب صالح» بعد احدوثته مريود نصوصا من بينها واحد شبه بيوغرافي «المنسي» لكن الناس والقراء بقوا في خبر نصوصه الاولى، اذ ان هذه النصوص لم تستنفد بعد، لم يصدر الطيب سوى أربع روايات تقريبا لكن واحدة منها فحسب وربما اثنتين في الأكثر عرفتا قراءة واسعة. كانت القراءة تقل بمقدار تقدم فن الطيب الروائي. كانت موسم الهجرة رواية قضية، وربما هنا سر انتشارها. لقد وضعت علاقة الشرق والغرب في سياق عنيف وأمام استحالة، لكنها اوحت بأن امتلاك الغرب مثله مثل العودة الى الأصل مسدودان. مع ذلك يمكن الآن النظر إلى موسم الهجرة كرواية ايديولوجية. ان لغتها هي لغة حكم ورسالة متقصدة، لكنها ككتاب ادوار سعيد اللاحق عن الاستشراق حملت نقدا ايديولوجيا. كان مصطفى سعيد مستشرقا ضديا ولم يستطع ان ينزع عنه هذه اللعنة، لكن الطيب صالح في «عرس الزين» كتب بلغة بلا حكم. لغة ذات شاعرية وإيقاع وتشكيل فحسب. كتب ملحمة ناعمة وعيدا لغويا ونصا من شغاف الواقع، كتب منمنمة كبيرة ولم يعد الموضوع ولا القضية خارج النص او خارج نسيجه. أما في «بندر شاه» و«مريود» وقبل ان تصل رواية اميركا اللاتينية فقد أسس فانتازيا عربية.
رواية بعد رواية كتب الطيب صالح الرواية المضادة اذا كانت رواية نجيب محفوظ هي عمود الرواية العربية، رواية اللغة والشعر والسحر. لقد كان هذا فوق طاقة القارئ العربي. هكذا بقي انتاج الطيب صالح على قلته غير مقروء كفاية. اليوم نجد هذا الأدب يملك من الاصالة ما يتيح له ان يبقى في الزمن، كتب الطيب صالح رواية وآثر بعد ذلك ان يكتب احدوثة، كتب الدراما وبعد ذلك فضل ان يكتب الشعر. كان مقروءا جدا وغير مقروء، مشهورا ومغمورا في آن معا، روائيا كبيرا عاطلا عن الكتابة. لقد كان مقلا ومع ذلك لم يستنفد، وبهذا المتاع القليل نحلم ان المستقبل سينصفه أكثر من الحاضر فكاتب في قامته لا يفوته المستقبل.

جريدة المستقبل اللبنانية ٢٠٠٩

اهتم الأدباء بلقاء الشرق والغرب مستجيبين له بتمثّل أشكاله ومناقشين لقضاياه أحيانا، ومجسدين لرؤاهم له غالباً . وكان ذلك طبيعياً في ظل انفتاح العرب على الآخرين وتحديداً الغربيين ، وبشكل أكثر تحديداً الأوربيين قبل أن يشمل الأمريكان في وقت لاحق ، وانفتاح الآخرين على العرب . وكان طبيعياً أيضاً أن يطرح ذلك بالضرورة الاختلافات الكثيرة ما بين الاثنين ، الأمر الذي يثير في النتيجة الخلاف والرفض في جانب ، والقبول ، غالباً المتحفظ ، في جانب آخر ، كما يثير التساؤلات والجدل الصريح والضمني ، وربما التصادم في غير قليل من المناسبات والظروف . في ظل هذا كان من الطبيعي أن لا تتأخر هذه الاستجابة أو التمثل من الأدباء العرب عن فعل اللقاء نفسه بينهم وبين الغرب وما أثاره خاصة في ظل الاختلافات الكثيرة التي تفرض تناولها إبداعاً ، وتبعاً لذلك نقداً إلاّ بحدود تأخر ظهور النوع الأدبي نفسه الذي يعنينا عند العرب .

الحداثة والاستشراق

رؤية العربي للغرب في الرواية العربية

نجم عبد الله كاظم

فنحن نعرف أن العرب لم يمتلكوا في أدبهم الحديث رواية فنية إلاّ بعد عدة عقود من تحقق ذلك اللقاء الحضاري الحديث ، بأشكاله المختلفة ، بين الشرق أو العرب تحديدا والغرب . يضاف الى ذلك أن الإبداع إذ لا يهتم بالوقائع بقدر اهتمامه بالعواطف والانفعالات ولنقل الجانب الوجداني للإنسان ، فإن الرواية إنما تُعنى بالتجربة الوجدانية والانفعالية بعد نضجها واستقرارها وربما انتهائها النسبيين ، وعليه يكون تأخر تمثلها لهذه التجربة طبيعياً . عدا ذلك يمكن القول إن العرب قد اهتموا من خلال مفكّريهم ومثقفيهم باللقاء بين الشرق والغرب مبكراً ، فقد "انشغل مفكرو عصر النهضة العربية بقضية العلاقة بين الشرق والغرب ، وسجلوا تجاربهم لدي ارتطامهم بالحضارة الأوروبية ، وحددوا مواقفهم ورؤاهم بالنسبة لهذه العلاقة وآثارها ونتائجها" . وكُتب في ذلك الكثير نسبياً مما لسنا معنيين هنا إلاّ بما كان له علاقة منه بالميدان أو الفن موضع اهتمامنا ، نعني الرواية . وحتي هنا ، إذا ما أردنا أن نكون مرنين في التعامل مع تلك الكتابات التي اشتملت على بعض ملامح الرواية أو مهدت لظهورها ، ومنها أوائل الأعمال التي انشغلت باللقاء بين الشرق والغرب ، فإن هذا الانشغال والتمثل كان مبكرا نسبياً ، بل هو واكب هذا اللقاء الى حد كبير .

وهكذا إذا كان الأدباء في العصر الحديث قد تمثّلوا اللقاء بين الشرق ممثّلاً غالباً بالعرب ، والغرب ممثلاً بشكل خاص بأوروبا والى حد ما أمريكا ، فإن الروائيين كانوا أكثر هؤلاء الأدباء فعلاً لذلك برغم حداثة الفن الروائي بشكل خاص والقصصي بشكل عام في الأدب العربي مقارنة بالشعر مثلاً . ويبدو أن مرد تميّز الروائيين عن غيرهم في هذا التمثّل هو طبيعة الجنس الروائي نفسه المتعامل مع الحياة والواقع والناس والتجربة أكثر من أي جنس آخر . وهذا الأمر يجعلنا نختلف مع قول أحد الباحثين : "انتبهت الرواية العربية لقضية الشرق والغرب في النصف الأول من هذا القرن بتأثير البعثات الدراسية للطلبة العرب الى أوروبا من جهة والزيارات التي قام بها أدباء عرب الى أوروبا من جهة أخرى" ، إذا ما فهمنا قول هذا الباحث على أنه يعد هذا الاهتمام هو البداية ، أو أن الرواية المقصودة إنما هي الرواية الفنية .

فإجمالاً "الكتابة الروائية عكست صدمة اكتشاف الآخر الأوروبي منذ وقت مبكر ، ولكن الغريب أن هذه الصدمة لم تتوقف منذ زمن الاكتشاف الأول الى زمن العولمة الحالي" . يبقي من الصحيح أن نقول إن الاهتمام أو التمثل قد مر بمراحل ، وفقاً لمراحل الاتصال أو اللقاء نفسه وطبيعة كل مرحلة منها من جهة ، ولمراحل تطور الرواية العربية نفسها من جهة أخري وكما سنحاول عرضه باختصار في ما سيأتي :

المرحلة الأولى ، هي المرحلة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر تقريباً الى الحرب العالمية الأولي ، وكانت كتاباتها عبارة عن وصف للغرب أو لبعض جوانبه مع الانتباه الى ظواهر الأمور وإعطاء بعض من هذه الظواهر اهتمامات خاصة ، وكل ذلك جاء مع غلبة للتعميم ونقص الوضوح الكافي عادة ، وحتى في حالة بيان الرأي أو الآراء فإنها تكون في "شكل الانطباعات الشخصية" .

وكان طبيعياً أن تتصف هذه المرحلة أو بالأحرى أعمالها المحدودة بذلك ، "ففي مرحلة الاكتشاف المفاجئ والصادم التي تتحدد تاريخياً بالنصف الأول من القرن الماضي (التاسع عشر) كانت صورة الآخر الغربي غامضة ومشوشة في عمومها ، ذلك لأن من تصدى لبنائها وبلورتها كان يفتقد اللغة المناسبة للتواصل مع هذا الآخر العجيب الغريب الذي يختلف عن صورة أسلافه ، وعن صورة الذات كل الاختلاف ، وخصوصاً إذ يباشر "حيالاً" ينتج عنها (أمور لا تتسع لها عقول أمثالنا) كما كان يقول الجبرتي . كانت الأطروحة الرئيسية في هذه المرحلة نتاج ذلك الوعي البسيط "السعيد" كما يقول ألبيرت حوراني ، حيث كان الآخر "بعيداً عنا غاية الابتعاد" وبالتالي يمكننا التعامل معه بحرية وراحة لنأخذ ما نحتاجه من "علوم البرانية" وتقنياته غكذاف الضرورية لنهضتنا ونترك ما لا يتلاءم مع معتقداتنا وقيمنا وعاداتنا . هذا ما كان يلح عليه الطهطاوي وعلى مبارك

إذا كان الأدباء في العصر الحديث قد تَمثّلوا اللقاء بين الشرق ممثلاً غالباً بالعرب ، والغرب ممثلاً بشكل خاص بأوروبا والى حد ما أمريكا ، فإن الروائيين كانوا أكثر هؤلاء الأدباء فعلاً لذلك برغم حداثة الفن الروائي بشكل خاص والقصصي بشكل عام في الأدب العربي مقارنة بالشعر مثلاً . ويبدو أن مرد تميّز الروائيين عن غيرهم في هذا التمثّل هو طبيعة الجنس الروائي نفسه المتعامل مع الحياة والواقع والناس والتجربة أكثر من أي جنس آخر . وهذا الأمر يجعلنا نختلف مع قول أحد الباحثين : "انتبهت الرواية العربية لقضية الشرق والغرب في النصف الأول من هذا القرن بتأثير البعثات الدراسية للطلبة العرب الى أوروبا من جهة والزيارات التي قام بها أدباء عرب الى أوروبا من جهة أخرى" ،

وهما يدشنان مشروع الكتابة عن الآخر ثقافياً بعد أن دشن محمد على باشا مشروع التحديث السياسي والاقتصادي والعسكري ، وكل هذا في سياق الاتصال بالغرب ولا بد" . كان أهم من مثّل ذلك رفاعة الطهطاوي في "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" -١٨٣٤ - وعلى مبارك في "علم الدين" -١٨٣٦- وأحمد فارس الشدياق في "الساق على الساق" - ١٨٨٧ - ومحمد المويلحي في "حديث عيسي بن هشام" -١٩٠٥. وتعلقاً بأعمال هذه المرحلة وهذه الأعمال يجب أن نقول إن واحداً منها ، وهو "حديث عيسى بن هشام" يخرج الى حد كبير عما قلناه وقاله الدكتور معجب الزهراني في الاقتباس السابق عن طبيعة أعمال هذه المرحلة ، خاصة من ناحية فهم الغرب . وفي هذه الأعمال عموماً ، وفي العملين الأولين خصوصاً "كان الشعور تجاه الآخر بأنه المتفوق وليس العدو المتحكم" .

المرحلة الثانية هي الممتدة من الحرب العالمية الأولى الى مرحلة التحرر والاستقلال وحركات التحرر والثورات في الخمسينات والستينات ، وربما الى نكسة حزيران ١٩٦٧ .

شهدت هذه المرحلة التأسيس الفني للرواية العربية وتطورها في جل الأقطار العربية من جهة ، وانفتاح العرب أكثر- مجبرين ومختارين - على الغرب وإسهامهم الفاعل في زيادة العلاقة به وترسيخها وتفعيلها ، خاصة في النصف الثاني من هذه المرحلة ، نعني ما بعد الحرب العالمية الثانية من جهة ثانية . هنا وقبل أن نأتي الى أهم الأعمال وأولها "عصفور من الشرق" ، من المفيد أن نشير الى أن إحدى الدارسات ، وهي الدكتورة بثينة شعبان قد نبهت النقاد والباحثين الى رواية وجدت الباحثة أنها في الواقع الرواية الأولى التي تناولت موضوعة لقاء الشرق والغرب ، وكان ذلك قبل ما يقرب الثلاثين عاماً من ظهور رواية ، أو كتاب الحكيم ، تلك هي رواية "بديعة وفؤاد" - ١٩١٤ - ومؤلفتها هي عفيفة كريم . تقول الباحثة : "تحاول الكاتبة في هذه الرواية ، ومن خلال الشخصيات والأحداث ، معالجة موضوع مهم ما زلنا نعالجه بعد قرن من نشر روايتها ، وهو العلاقة بين الهوية الثقافية والحداثة ، ومحاولة خلق علاقة بين الاثنين دون تجاهل إحداهما أو الغرق في الأخرى . وفي معالجتها للعلاقة بين الغرب والشرق ومكانة النساء في كل منهما ، أظهرت الروائية معرفة عميقة بثقافتها كامرأة عربية وانفتاحاً ذهنياً حيال الغرب وحيال ما يجب تعلّمه منه ، دون أن يصبح المرء إما محافظاً أو تابعاً للعادات ونظم التفكير المستورد . هذه هي الرواية العربية الأولى التي تعالج مثل هذا الموضوع ، وقد نشرت قبل ثلاثين عاماً ونيفاً من رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" ، والتي ادّعى جورج طرابيشي أنها الرواية العربية الأولى التي تؤسس لما أسماه إثربولوجيا بين الشرق والغرب" .

الى جانب رواية عفيفة كريم ، إذا سلمنا بما قالته بثينة شعبان ، ورواية توفيق الحكيم قدمت هذه المرحلة ضمن مراحل تناول موضوعة الشرق أو العرب والغرب روايات أخرى أهمها : "أديب" - ١٩٣٥ - لطه حسين ، و"قنديل أم هاشم" - ١٩٤٤ - ليحيى حقي ، و"الحي اللاتيني" - ١٩٥٣ - لسهيل إدريس ، إضافة الى إمكانية ضم رواية الطيب صالح الشهيرة "موسم الهجرة الى الشمال" التي هي عود زمنياً الى المرحلة التالية . المهم أن روايات هذه المرحلة ، وفي ظل التأسيس الفني للرواية العربية ، كما قلنا ، قد وصلت في هذا التأسيس ومن ثم التطور الى "ما يسمح للكاتب بتعديد وجهات النظر والخطابات حول إشكالية متعددة المستويات والأبعاد وتتطلب من "الحوارية" في الأذهان والأساليب والنصوص أكثر مما تتحمله من الرؤى والمواقف الحدية والأحادية" . وهكذا تنجح روايات هذه المرحلة في أن تكون "مرجعية الخطاب وتمثيلاته للذات والآخر" على حد تعبير معجب الزهراني الموفق والذي يضيف ما قد يكون حوله اختلاف إذ يقول : "فمشاعر الثقة في الذات الفردية وآمال واستكمال مشروع تحرير ونهضة الذات الوطنية والحضارية كانت تتغذي على ثقافة هذا الغرب الذي تعددت صوره الجذابة والمنفرة .

فصور (غرب الفن والجمال) ، و(غرب الفكر العقلاني الجذري) ، وغرب (العلم والتقنية الحديثة والمحايدة) تتجاور وتتحاور في ذات الفضاء الروائي ، كما في الفضاء خارجة ، لتغطي على صورة الغرب المادي المتفسخ والكافر" .

بغداد.. مقال بقلم الطيب صالح

كتب الطيب صالح في شؤون أدبية عدة من بينها: أدب الرحلة. هنا لقطة رحلية له عن بغداد:

حين قدمت على بغداد كانوا قد عينوا عبدالحسين زويلف لتوهم مديراً لجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الإقليمي في عمان، الذي يرأسه الدكتور محمد إبراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. أن أكون أمياً بين الأميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة، كم أنا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت أكتشف أشياء جديدة. لقد طوفت هذا العالم المتنوع الجميل عدة مرّات من قبل، وظننت أني أعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، أنني لم أعرفه حقاً لأنني لم أنظر إليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الأميين. أكثر من مئة مليون أمي في العالم العربي! معنى ذلك أنك لن تستطيع أن تصنع تنمية، ولا أن تقيم حاضراً ولا مستقبلا. لن تستطيع أن تحقق شيئاً من هذه الأحلام الجميلة التي تعنّ لهؤلاء الناس الأكابر. وإذا صدّقنا شعار منظمة اليونسكو، وهو حق (بما أن الحرب تنشأ في عقول البشر، فلا بد من إقامة حصون السلام في عقول البشر) فمعنى ذلك أنك لن تستطيع إقامة أي من هذه الحصون، إلا إذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدها، بل كانت أجمل. كان سوق (المربد) عامراً وتبارى الخطباء والشعراء وألقى محمد الفيتوري قصيدته العصماء (لم يتركوا لك ما تقول). تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الأريحي، ولكنهم تناسوه وأخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأميّة. توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأميّة تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا أن عبدالحسين زويلف كان واثقاً أنهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي. استقبلني بابتسامته الودود ووجهه الطيب، ورافقني طوال إقامتي، وكان سعيداً متفائلا. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس إسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الأميين في كل مكان، في الأهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاما. وكما تتحول أحداث الحروب إلى أساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأميّة، إلى أسطورة مثيرة في خيال عبدالحسين زويلف. قصدت الكويت بعد بغداد، وهنالك لقيت عبدالعزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل أخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والإيمان العميق بقيمة الإنسان. بعض المهن والحرف تفعل هذا الأثر في أصحابها. الأطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سراً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث أمام أعينهم يوما بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل أن تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد أمد من الظلام، تنحل لهم الرموز، وتنفكّ ألغاز الحروف.

ك.. ت.. ب.. /كتب/ ع.. ر.. ف.. /عرف/.

نظرت مع عبدالعزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الأميين، رجالا ونساء، فجأة تشعّ بالحياة حين يقرأون ويكتبون، ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها أن تتعلم الآن؟ إنها تلك الرغبة المتأصلة في الإنسان أن يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة أفضل مع الآخرين، إلا أن معظم الناس الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحدوهم أيضاً رغبات مُلحّة لتحسين أوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو أحسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معدّاً إعداداً عاليا، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت أن أعرّج على دار كريمة وأسلّم على ساكنها الكريم، الأستاذ عبدالعزيز حسين. كان رئيسنا طوال أربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الأيام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الأعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الإنسان الفذ. ومهما يكن فإن تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية، سوف يظل أثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذّت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف أجد صديقي عبدالعزيز المقالح. وسوف أزور (حجة) وأرى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع. في العالم العربي عالم الأميين، على الأقل، عالم واحد.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت أن أعرّج على دار كريمة وأسلّم على ساكنها الكريم، الأستاذ عبدالعزيز حسين. كان رئيسنا طوال أربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الأيام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الأعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم،

وداعاً أيها الطيب الصالح

توفيق التميمي

الان انتهت هجرة الفتى الاسمر الطيب صالح في الاتجاهات المتعاكسة مابين شمال مضيء بالملذات والانبهار وجنوب مطفأ بالفقر والبؤس والهزائم.

وصل الطيب صالح الى نهاية المطاف في هجرته الاخيرة ليصطف مع سلسلة ذهبية سبقته الى هناك حيث (لوعة الغياب)

تستقبل عبقريا جديدا من عباقرتها الافذاذ وأحد صناع المسرات والجمال في تاريخ الرواية العربية المعاصرة وواحد من العلامات الفارقة في تاريخ السودان المعاصر، ليس بين شواخصها الابداعية فحسب بل في كل مثاباتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على امتداد القرن السابق، حيث نجح الطيب الصالح بايجاد حلقة الندية المفقوة في الحوار اللامتكافئ بين الشرق والغرب. احد ابرز اسرار المعاجز الابداعية في حياة الطيب الصالح ومشروعه الروائي الخطير ذلك السعي المبكر وعلى طريقته الخاصة للوصول الى بقعة آمنة لن يبلغها من قبله توفيق الحكيم في (عصفور الشرق) والشاب البوهيمي سهيل ادريس في زوايا اللذة والتيه في (الحي اللاتيني) فيبلغها بطله الاثير في ذاكرتنا (مصطفى سعيد) ذلك الذي مازال ما ثلا حتى اللحظة وهو يلوح لنا نحن المتفرجين على هزائمنا وانكساراتنا بلا حول او قوة.. مازال يلوح ويصرخ بالنجدة.. النجدة ولم نسعفه ولم نسعف انفسنا من الغرق واهدار كل مدخرات البطولة والاعتزاز فضاعت في خضم الامواج المتلاطمة سجادته الشرقية واوانيه القروية وتعاويذ اجداده السمر في اول لقاء مباغت مع العالم الاخر بأضوائه ومباذخه واستفزازته.

ظل (مصطفى سعيد) يجوب مسارات التيه دون ان يفلح كما الذين سبقوه في توحيد الامكنة والارواح البشرية باختلاف الوانها ولغاتها على بقعة آمنة من الورق الابيض ليترك العالم في لحظة محتقنة من الصراعات والاحترابات المحتملة بين هذه الالوان واللغات، تجهض احلام الرواة المبدعين وتصالح نبوءات الساسة وجنرالات الحروب. على عتبات موسم هجرته الاخيرة لا يسعني الا ان اتذكر الفرق الحاصل بين موت واخر، موت الطيب صالح هو من نوع الموت الذي يضرب عميقا في لوعته ويفجر في الذاكرة ينابيع من الجمال وفيوضات من العطاء تمتد في الروح وتتقمص الذاكرة الجمعية لجيل كامل اعطاه الروائي دروسا مهمة على ندرتها في الحصول على المجد والقبض على ناصيته ليس بقطار الموهبة وحدها بل بالمثابرة الجدية لتطوير هذه الموهبة والمرابطة في مسقط الراس وحمله كامانة على عاتق الموهبة وذمة الابداع. ما فعله العبقري الطيب صالح ذلك الفتى الاسمر قبل ان يلملم اوراقه الاخيرة في بدايات حفلة الكون الالكترونية الصاخبة الجديدة وفي زمن سطوة الايقونات الزرقاء هو الزهو بعمامته القروية وهو يخطو في شوارع سوهو ويعتلي منصات اكسفورد ليتكلم بلغات الغرب عن طعم طين قريته السودانية دون ان يخامره اي شعور بالدونية او بالتفوق الوهمي.

ولهذا خسرت السودان ابنها البار الذي حمل تعويذتها وهو يفتح طلاسم ضباب مدينة الحرية والصخب والعطايا.

والعزاء في هذه الخسارة ذلك اليقين الذي ستتكفل به بقايا روايات الطيب صالح المتالقة على رفوف المكتبات العربية والعالمية بصناعة مجد لن يمحى بسهولة يوفر لاسمه حصانة ضد النسيان يتسرب من مسالك الكلمات وسيولة الحبر الممزوج برائحة عرق الفلاح السوداني وايقاع اغنيةأفريقية الطعم تنساب من فجر قروي لايستشعر نكهته الا من تقمص تاريخ بلاده وعذاباتها واشعار اهلها المنسيين والتي نهلت منها عبقرية الروائي (عرس الزين) و(ودومة ود حامد).

وبقية الروايات الشحيحة التي ترجمت عبقريته بسطوع وخلفت وراءها سلسلة من الاسئلة المربكة تتــراوح بالحيرة وتنتظر الاجابات المستعصية ما بين مسالك الهجرات المتعاكسة التي لن تتوقف بعد غيابه.

قبل النظر في مغاليق هذه الرواية المرمّزة، قد يكون من المفيد، أن نضع نُصب أعيننا حقيقتيْن: الأولى هي أنّ الطيّب صالح، شأنه شأن راويته في" موسم الهجرة إلى الشمال"، وشأن مصطفى سعيد، البطل الثاني للرواية، درس في نشأته الأولى اللغة الإنكليزية، على يد أساتذة إنكليز كأساسٍ ثقافي قبل أن يطّلع على الأدب العربي. لهذه الحقيقة تداعيات مهمّة كما سنرى.

الحقيقة الثانية، هي أنّ الرواية وإن تذرّعت الأجواء السودانية المحلية، إلاّ أنها مشحونة بالثقافة الأوروبية، ولا سيّما المسرحيّات الشكسبيرية، وكأنّ كاتبها يحلّل أدواء البيئة المحلية في مختبر علمي مجلوب. (كان رجال القرية، يسمّون مصطفى سعيد: الإنكليزي الأسود).

موسم الهجرة إلى الشمال

روايــة المـوهـبـة

صلاح نيازي

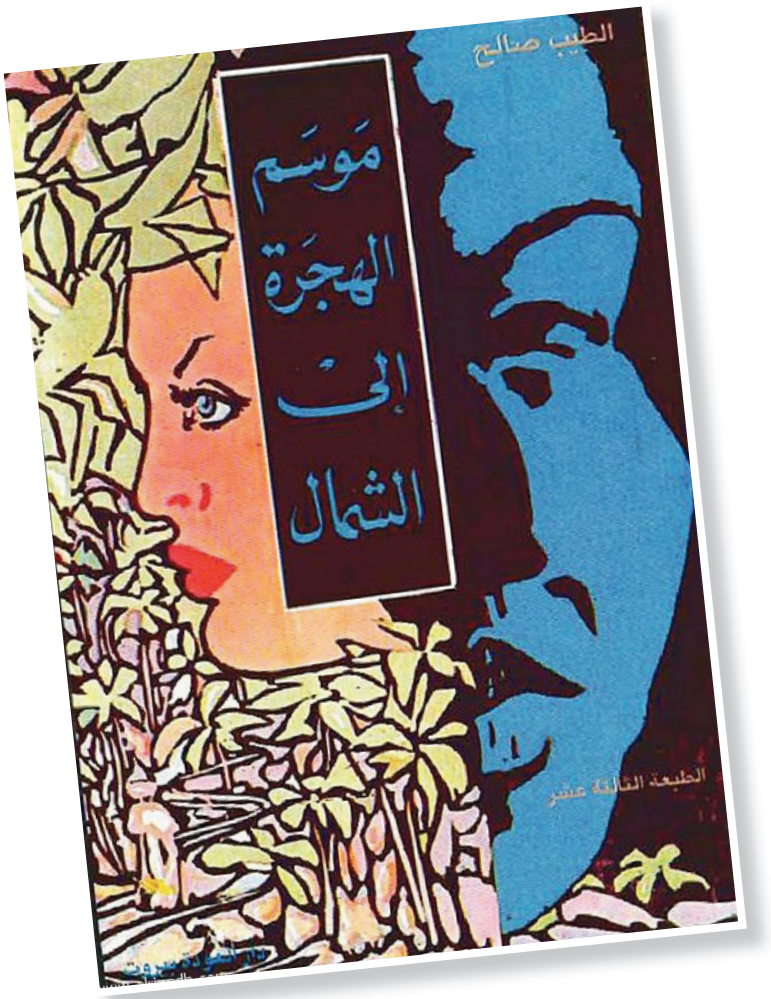

تعلّم الطيب صالح في نشأته الأولى، القراءة التحليلية، تشخيصاً وتمحيصاً، وقد آنعكس هذا في بناء شخوصه، وفي محاولة فهم تصرفاتهم فهماً سايكولوجيّاً. على هذا فإنّه يبذر في البداية، بذرة صغيرة، ثمّ يتابعها مرحلة مرحلة، مختبريّاً. إنّه لا يعطيك رأياً شاملاً واحداً بمصطفى سعيد مثلاً، ولكنّه يجمّعه لَبنةً لَبنة ومن وجهات نظر مَختلفَة.

على عكس ذلك ينشأ الطفل العربي، لأن التعليم في مدارسنا معنيّ بالحشو والآستظهار. معنيّ بالحصاد، أكثر مما هو معنيّ بالبذار.

على أية حال، ليست هذه الملاحظات، دراسة مكرّسة للرواية، بقدر ما هي تتبّع لأبطال بعض الروايات الآغترابية، وكيف تكيّفوا للعيش بأوروبا، وكيف تفاعلوا مع بيئاتهم الأصلية.

يختلف راوية موسم الهجرة للشمال، وخاصّة مصطفى سعيد، عن كلّ الأبطال الآخرين، في الروايات الآغترابية، في أنّه كان يتقن اللغة الإنكليزية، وآدابها، حتى قبل ذهابه إلى لندن.

وَصَفَهُ موظّفُ متقاعد مرّة: "كان أنبغ تلميذ في أيّامنا... معجزة في ذلك الوقت، كان أشهر طالب في كلية غردون... نابغة في كلّ شئ، لا يوجد شئ يستعصي على ذهنه العجيب. كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه بلهجة، وخصوصاً مدرسو اللغة الإنكليزية، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ...نحن كنّا ننطق الكلمات الإنكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نسكّن حرفيْن متتاليـيْن. أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه، ويمطّ شفتيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها..".

لنتوقفْ قليلاً، عند أشهر مشهد مأساويّ في مسرحية عطيل، ألا وَهو مشّهد المنديل وقتْل دزدمونه، وكيف تفاعل معه الطيّب.

يظهر آسم عطيل في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، ربّما لأوّل مرّة، حين يتعرّف مصطفى سعيد، على فتاة آسمها: إيزابيلا سيمور، و"نوعها كثير بأوروبا، نساء لا يعرفن الخوف، يقبلْنَ على الحياة بمرح وحبّ آستطلاع. وأنا صحراء الظمأ، متاهة الرغائب الجنونية.. وجاءت لحظة أحسست فيها أنني آنقلبتُ في نظرها مخلوقاً بدائياً عارياً، يمسك بيده رمحاً، وبالأخرى نشّاباً يصيد الفيلة والأسود في الأدغال. هذا حسن. لقد تحوّل حبّ الآستطلاع إلى مرح، وتحوّل المرح إلى عطف، وحين أحرّك البركة الساكنة في الأعماق سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة، كما يحلو لي. وسألتني: "ما جنسك؟ هل أنت أفريقي أم آسيوي؟ قلتُ لها: أنا مثل عطيل. عربي أفريقي".

هذه بالضبط الطريقة المختبرية، وكأن المراحل مواد كيمياوية يولّد بعضها بعضاً. الصورة البدائية العارية للصياد، ولّدت حبّ الاستطلاع، الذي ولّد بدوره، المرح. المرح ولّد العطف. النتيجة جاءت كما أرادها مصطفى سعيد، لأنّه إنْ هو حرّك الآن "البركة الساكنة في الأعماق سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة، كما يحلو لي".

لا شكّ، إن البناء هنا ليس آعتباطاً يتولد بالصدفة، أي ليس أشجاراً نامية في مكان ماللا سبب، وإنما هي أشجار مستنبتة ومُمَكْننة إنْ صحّ التعبير.

ثمّ هل التعبير: "أوتارها المشدودة" صيغة عربية متوارثة؟ لا أدري لماذا تذكّرنيهذه الأوتار، بوتر الليدي مكبث وهي تحثّ مكبث على قتل الملك دنْكنْ. كان مكبث خائفاً من إخفاق خطّة قتل الملك، فقالت:

- "نخفق؟
حسبك أن تشدّ وتر شجاعتك إلى منزع القوس
ولنْ نُخْفِق"

تتقاربُ الصورتان لأنهما تؤديان إلى الصيد، والدم.

أكثر من ذلك، يقول مصطفى سعيد، في مناسبة أخرى: "أنا لستُ عطيلاً. عطيل كان أكذوبة". هل كان مصطفى سعيد، عطيلاً حقيقياً إذن، أم تمويهاً واقعياً؟

قال:

"كنتُ أعلم أنها تخونني. كان البيت كلّه يفوح بريح الخيانة. وجدتُ مرّة منديل رجل، لم يكنْ منديلي. سألتها فقالت: إنّه منديلك. قلتُ لها هذا المنديل ليس منديلي. قالت: هبْ أنه ليس منديلك. ماذا أنت فاعل؟:

"...وضعتُ حدّ الخنجر بين نهديها، وشبكتْ هي رجليْها حول ظهري. ضغطتُ ببطء. ببطء. فتحتْ عينيها. أيّ نشوة في هذه العيون. وبدتْ لي أجمل من كل شئ في الوجود. قالتْ بألمٍ: يا حبيبي. ظننتُ أنّك لن تفعل هذا أبداً. كدتُ أيأس منك. وضغطتُ الخنجر بصدري حتى غاب كلّه في صدرها بين النهدين. وأحسستُ بدمها الحار يتفجّر من صدرها. وأخذت أدعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسّلة: تعال معي. تعال. لا تدعْني أذهب وحدي".

ثمة مقابسة ثقافية آخرى من التصورات الشكسبيرية، في رواية موسم الهجرة للشمال ولا سيّماالتصورات النهرية في مسرحية مكبث. هنا كما في مسرحياته الأخرى عموماً تشكّل الأنهار لدى شيكسبير رمزاً للموت، وأشهر تلك الأنهار إطلاقاً هو النهر الصغير الذي غرقتأو انتحرتْ فيه أوفيليا. (كذلك مصطفى سعيد، ما من أحد يعرف هل غَرِقَ أم آنتحر). يقول مصطفى سعيد، بعد أن آستدرج إيزابيلا سيمور إلى الحديث عن نهر النيل: "الطائر يا مصطفى سعيد قد وقع في الشرك. النيل، ذلك الإله الأفعى، قد فاز بضحية جديدة".

نصادف أوّل الصور النهرية، في مسرحية مكبث، في المشهد الثاني – الفصل الأوّل، حينما روى أحد الضباط للملك دنكن عن سير المعركة، فقال:

"سجالاً كانت تدور،
مثْل سبّاحيْن منهكيْن، يشتبكان بالتحام
فيختنقان فنّهما في السباحة..."

تبلغ المأساة ذروتها، حينما تكون مثل نهر، يخوض فيه المرء الشقيّ إلى منتصفه فلا هو قادر على إكمال العبور ولا هو قادر على النكوص. قال مكبث مشبّهاً جريان الدم بالنهر:

"لقد خضتُ
في الدم بعيدا، وحتى لو لم أمضِ أبعدَ
فإنّ الرجوع صعب مثل المضي إلَى
الضفّة الأخرى"

وصف راوية موسم الهجرة إلى الشمال، غرقه الفاجِع، (وهو بالمناسبة، لا يقلّ عمقاً، ونفاذاً ومهارة عن وصف دستويفسكي لحالة الصرع، ووصف توماس دي كوينسي لمراحل انتشار الخدر في خلايا الدماغ، وبالتالي الجسد، بعد أكل الأفيون):

"وصلتُ إلى نقطة أحسست فيها أنّ قوى النهر تشدّني إليها. سرى الخدر في ساقي وفي ذراعي... وفجأةوبقوّة لا أدري من أين جاءتني، رفعت قامتي في الماء...تلفتّ يمنة ويسرة، فإذا أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة...".

ما دمنا في أتّون التأثّر والتأثير، نلحظ في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، لازمة تتكرّر، هي أنّ مصطفى سعيد لا وجود له، إنّه أكذوبة.و الراويةنفسه أكذوبة أخرى. فحينما كان مصطفى سعيد، يستمع إلى ماجريات محاكمته، وكيف حاول أستاذه، بروفسورماكسويل فستر كين أن يخلصه من المشنقة، خطر بباله أن يقف ويصرخ في المحكمة: "هذا المصطفى سعيد لا وجود له. إنّه وهم، أكذوبة. وإنني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الأكذوبة... وخطر لي أن أقف وأقول لهم "هذا زور وتلفيق. قتلتهما أنا. أنا صحراء الظمأ...لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة".

في مناسبة أخرى، يتذكّر الراوية، مصطفى سعيد بعد آختفائه، كيف كان يقرأ شعراً إنكليزياً:

هؤلاء نساء فلاندرز
ينتظرن الضائعين،
ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يغادروا الميناء
ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يجئ بهم القطار
إلى أحضان هؤلاء النسوة، ذوات الوجوه الميتة
ينتظرن الضائعين، الذين يرقدون موتى في الخندق
والحاجز والطين في ظلام الليل
هذه محطة تشارنغ كروس. الساعة جاوزت الواحدة.
ثمة ضوء قليل
ثمّة ألمٌ عظيم".

قال الراوية: "ضوء المصباح ينعكس على وجهه، وعيناه سارحتان كما خُيّل لي في آفاق داخل نفسه. والظلام حولنا في الخارج كأنّه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء ذلك المصباح. أحياناً تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة

تعلّم الطيب صالح في نشأته الأولى، القراءة التحليلية، تشخيصاً وتمحيصاً، وقد آنعكس هذا في بناء شخوصه، وفي محاولة فهم تصرفاتهم فهماً سايكولوجيّاً. على هذا فإنّه يبذر في البداية، بذرة صغيرة، ثمّ يتابعها مرحلة مرحلة، مختبريّاً. إنّه لا يعطيك رأياً شاملاً واحداً بمصطفى سعيد مثلاً، ولكنّه يجمّعه لَبنةً لَبنة ومن وجهات نظر مختلفة.
على عكس ذلك ينشأ الطفلَ العربي، لأن التعليم في مدارسنا معنيّ بالحشو والآستظهار. معنيّ بالحصاد، أكثر مما هو معنيّ بالبذار.

أنّ مصطفى سعيد لم يحدث إطلاقاً، وانه فعلاً أكذوبة، أو طيف أوحلم، أو كابوس، ألمّ بأهل تلك القرية تلك، ذات ليلة داكنة خانقة، ولمّا فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه".

لكنْ على أيّ محملٍ يُحمل الاَقتباس أعلاه؟ مصطفى سعيد كان من لحم ودم. له زوجة، ووَلَدان. له بيت يزار، وجواز سفر. أكثر من ذلك حوكم ودخل السجن.

فكيف يكون أكذوبة؟

قد يكون أكذوبة فعلاً، إذا فكّرنا في الخرافات العربية القديمة، حيث يتزوج الجنّ من النساء، كما في القصة المشهورة عن" آمرأة آسمهاحَبّة التي علقها رجل من الجنّ، يُقال له آبن منظور.(عن آبن جنّي في تفسير البيتين التاليين):

أعينيّ! ساء الله مَنْ كان سرُّهُ
بكاؤكما أو مَنْ يُحبّ أذاكما
ولو أنّ منظوراً وحبّة أسْلما
لنزع القذى لم يُبْرِئا لي قذاكما"

لا يمكن أن يجنح خيال الطيب صالح إلى تلك المنتجعات الخرافية، وهو يعالج أشقّ موضوع نفسيّ جادّ. يقول مصطفى سعيد: "...ولكنْ إلى أن يرث المستضعفون الأرض، وتُسَرّح الجيوش، ويرعى الحَمَل آمناً بجوار الذئب، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر، إلى أن يأتي زمن السعادة هذا، سأظلّ أعبّر عن نفسي بهذه الطرق الملتوية".

هل ثمة تشابه بين أبطال موسم الهجرة إلى الشمال، والمسرح الأليزابيثي عموماً؟ يتفق النقّاد، على أن القوى الخفية هي التي تحرّك شخوص مسرحيّات شيكسبير. وما هُمْ إلاّ تجسيد لأفكار. هل، بالمثل ثمّة قوى خفية في موسم الهجرة إلى الشمال، وما مصطفى سعيد وسواه سوى أوعيةتتجسّد فيها معتقدات بعينها، أو هُمْ وسائط لنقلها؟ يبدو أنّ للطيب صالح تصوّراً فلسفيّاً للتاريخ خاصّاً جدّاً، وهو الذي أعطى لهذه الرواية، بعداً جغرافيّاً، وعمقاً تأريخياً في أعماق النفس، عزّ نظيرهما. يتصوّر الطيّب أنّ المجتمات البشرية في انتقال دائم، وإنْ لم يكونوا بالضرورة بدواً رُحّلاً. فالسوداني لم ينبت سودانياً كشجرة ثابتة، ولا المصري ولا العراقي ولا الأوروبي. بكلمات أخرى قد ينحدر الإنسان إلى أصول مختلفة، وإن حمل سحنة ولغة البلد الذي يسكن فيه حاليّاً. طرح الطيب هذه الفكرة على حياء أوّلاً قبل أن يوظفها مصطفى سعيد، في أحابيله العاطفية.

يقول مصطفى سعيد واصفاً إيزابيلا سيمور في لقائهما الأوّل: "عادت النظرة الحانية إلى عينيها، ومدّت يدها فأمسكت يدي وقالت:هل تدري أنّ أمّي إسبانية؟". قال لها مصطفى سعيد: "هذا إذن يفسّر كل شيئ. يفسّر لقاءنا صدفة، وتفاهمنا تلقائيّاً، كأننا تعارفنا منذ قرون. لا بدّ أنّ جدّي كان جنديّاً في جيش طارق بن زياد، ولا بدّ أنّه قابل جدّتك وهي تجني العنب في بستان بأشبيلية. ولا بدّ أنّه أحبها من أوّل نظرة، وهي أيضاً أحبّته، وعاش معها فترة ثمّ تركها وذهب إلى أفريقيا، وهناك تزوج وخرجت أنا من سلالته بأفريقيا، وأنت جئت من سلالته بأسبانيا".

في مرّة أخرى، ذكرمصطفى سعيد، كيف التقى بسوسن إثر محاضرة ألقاها بأكسفورد عن أبي نواس. "وفجأة رأيت فتاة في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة تثب نحوي وثباً مخترقة الصفوف، وطوّقتني بذراعيها وقبلتني، وقالت باللغة العربية:أنت جميل تجلّ عن الوصف. وأنا أحبك حبّاً يجلّ عن الوصف. قلت لها بعاطفة أخافتني حدّتها: وأخيراً وجدتك يا سوسن. إنني أبحث عنك في كلّ مكان، وخفت ألاّ أجدك أبداً.هل تذكرين؟ قالت بعاطفة لا تقلّ

عاد مصطفى سعيد إلى السودان بعد أن قضّى مدّة السجن بلندن، وانخرط في الحياة السودانية مواطناً عادياً. يواظب على الصلاة، ويمارس طقوس القرية كأنه واحد منهم. تزوج وأنجب طفلين. وقبل وفاته ترك زوجته وطفليه في عهدة الراوية. سأل الراوية مرّة، الزوجة:

- هل أحببتِ مصطفى سعيد؟

يقول الراويَة :"لم تُجِبْ. وظللتُ برهة أنتظر، ولكنّها لم تُجِبْ.

عن عاطفتي حدّة: كيف أنسى دارنا في الكرخ ببغداد على ضفة نهردجلة أيّام المأمون؟ أنا أيضا آقتفيت أثرك عبر القرون...لم تتغيرْ منذ آفترقنا"

قد يكون هذا الماضي –على جدّيته – تصوّراً رومانسيّاً. ولكنّه أصبح أكبر قوّة محرّكة عمّت جميع أجزاء الرواية. آرتبط الأمن في بداية الرواية بثبات الماضي.تبدأ الرواية على المثابة التالية: "عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنتُ خلالها أتعلّم بأوروبا..." يوحي تعبير: "يا سادتي" على أنّ الراوية أصبح صوتاً تأريخياً، يخاطب كلّ شخص ولا يخاطب أحداً. جعلنا الراوية نظّارة في مسرح، نعاصر أحداثاً قديمة. نحن خارجها وداخلها في آن واحد. في اليوم التالي يرخي الراوية أذنيه لصوت الريح، وكأنّ الريح رمز لمجرى الأحداث. ثمّ يقول: "نظرتُ من خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أنّ الحياة ما تزال بخير".

لم تكن النخلة، وهي ربما رمز للسودان، وحدها ملهمة للطمأنينة والأمن، جدّه كذلك. إنّه خزين الماضي ومستودع أسراره. يقول الراوية: "أذهب إلى جدّي، فيحدّثني عن الحياة قبل أربعين عاماً، قبل خمسين عاماً، لا بل ثمانين، فيقوى إحساسي بالأمن. كنت أحبّ جدّي، ويبدو أنّه يؤثرني. ولعلّ أحد أسباب صداقتي معه، أنني كنت منذ صغري تشخذ خيالاتي حكايات الماضي...ولمّا سافرت خفتُ أنّه يموت في غيبتي.

بهذه الأسطر القليلة، وضع الطيب صالح هيكل الفلسفة التي بُنِيَتْ عليها لبنات الرواية، وما تلك الفلسفة إلا موقفه من الماضي. شبّه الراوية نفسه بالنخلة التي أصبحت بالنسبة له مرآة أو صنوا أو أنه كان فسيلة صغيرة ملتصقة بها. "أنظر إلى جذعها القويّ المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة. أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكني مثل النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف".

هل مأساة مصطفى سعيد أنّه كان ريشة في مهب الريح؟ مخلوق بلا أصل، بلا جذور، بلا هدف؟

مصطفى سعيد بآختصار، مخلوق مصنوع، طُوِّرتْ موادّه الخام في مختبر إنكليزي حسب مواصفات خاصة. "كان آبنهم المدلّل".

من مواصفاته أنه يجب أن ينقطع عن تربته وجذوره. يجب أن ينقطع حتى عن جبلّته الإنسانية.

يصف لنا مصطفى سعيد وداعه لأمه في أوّل رحلة له من السودان إلى القاهرة، قبل سفره إلى لندن: "حين أخبرني ناظر المدرسة بأنّ كلّ شيئ أعدّ لسفري للقاهرة، ذهبت إلى أمّي وحدّثتها...آفترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن تبتسم، ثمّ أطبقتهما، وعاد وجهها كعهده، قناعاً كثيفاً، بل مجموعة أقنعة..."

ووصف مشاعره هو في ذلك الوداع: "كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا ضوضاء. مخلوقان سارا شطراً من الطريق معاً، ثمّ سلك كلّ منهما سبيله. وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي، فإنني لم أرها بعد ذلك. بعد سنوات طويلة، وتجارب عدّة تذكّرت تلك اللحظة وبكيت. أمّا الآن، فإنني لم أشعرْ بشيئ على الإطلاق". (سيتذكّر أمّه ثانية في أغرب مكان وأغرب توقيت: "... وتذكّرتُ نبأ وفاة أمّي حين وصلني قبل تسعة أشهر، وجدوني سكران في أحضان آمراة. لا أذكر الآن أية آمرأة كانت. ولكنني تذكّرتُ بوضوح أنني لم أشعر بأيّ حزن، كأنّ الأمر لا يعنيني في كثير أو قليل. تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي. بكيت حتى ظننت أنني لن أكفّ عن البكاء أبداً").

أكثر من ذلك، يصف مصطفى سعيد مشاعره حينما غادرت الباخرة من الاسكندرية إلى لندن: "وهاج الموج تحت السفينة، واستدار الأفق حوالينا، أحسست توّاً بألفة غامرة مع البحر. إنني أعرف هذا العملاق الأخضر اللامنتهي، كأنّه يمور في ضلوعي. واستمرأت طيلة الرحلة ذلك الإحساس في أنّي في لا مكان، وحدي، أمامي وخلفي الأبد، وصفحة البحر حين يهدأ، سرابٌ آخر، دائم التبدّل والتحوّل، مثل القناع الذي على وجه أمّي. هنا أيضاً صحراء مخضرّة مزرقّة ممتدّة تناديني، تناديني".

لماذا أحسّ مصطفى سعيد، بألفة مع البحر؟ ولماذا آستمرأ ذلك الإحساس بأنّه في لا مكان؟. هل هذه رموز عالمه الجديد المتبنّى، أي بريطانيا سيدة البحار؟ هذه صور تبدو على النقيض من أحاسيس الراوية الذي أحبّ الثبات المتمثّل بالنخلة، وجذورها الضاربة في أعماق التربة، وأحبّ مشهد أمّه وهي تحمل الشاي كما كانت قبل أن يغادر إلى أوروبا: "وجاءت أمّي تحمل الشاي، وفرغ أبي من صلاته وأوراده فجاء. وجاءت أختي، وجاء أخواي، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدّث، شأننا منذ تفتّحتْ عيناي على الحياة. نعم، الحياة طيبة، والحياة كلّها بخير".

تناقضٌ بلا شكّ، ولكنّه كتناقض وجهيْ العملة وهما من معدن واحد. قال الراوية حين آختفى مصطفى سعيد، غرقاً أم آنتحاراً: "إنني أبتدئ من حيث آنتهى مصطفى سعيد".

ما لم ينتبهْ إليه المختبر الإنكليزي، أنّ الجينات تبقى تحتفظ بصفاتها مهما تقادم عليها العهد. غرفة مصطفى سعيد بلندن شاهدة على ذلك. "وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة التي بنيتها عن عمد أكذوبة أكذوبة. الصندل والندّ وريش النعام وتماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل..." بهذه العدة التي تفتقّت عنها ذهنية مصطفى سعيد كان يوقع الفتيات الرومانسيات. ولكنها من ناحية أخرى، تشير إلى فشل الأوروبيين في صناعة إنسان شبيه بهم مائة بالمائة.

حتى في المحكمة التي عُقدتْ لمحاكمته بعد أن آعترف بقتل جينِ مورس، قال له القاضي في محكمة الأولد بيلي: "إنّك يا مستر مصطفى سعيد، رغم تفوّقك العلمي، رجل غبي. إنّ في تكوينك الروحي بقعة مظلمة". وقال له أستاذه مرّة: "أنت يا مسترسعيد خير مثال على أنّ مهمّتنا الحضارية بأفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كلّ المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأوّل مرّة". هذه المحكمة في واقع الأمر لم تكنْ لمحاكمة مصطفى سعيد، وإنّما لمحاكمتهم هم، لمحاكمة الفكر الأوروبي الآستعماري. ربما لهذا السبب آعترف بجريمة القتل ببرودة أعصاب، وكأنّ جريمة القتل جاءت نتيجة عفوية وغريزية وطبيعية، أيْ خارجة عن إرادته:

– هل تسببتَ في آنتحار آن هموند؟
– لا أدري
– وشيلا غرينود؟
– لا أدري
– وإيزابيلا سيمور؟
– لا أدري
– هل قتلتَ جين مورس؟
– نعم
– قتلتها عمداً؟
– نعم

هل قطع مصطفى سعيد، بهذا القتل المتعمّد، أو حاول أن يقطع، صلته بهذا العالم الغريب؟

عاد مصطفى سعيد إلى السودان بعد أن قضّى مدّة السجن بلندن، وانخرط في الحياة السودانية مواطناً عادياً. يواظب على الصلاة، ويمارس طقوس القرية كأنه واحد منهم. تزوج وأنجب طفلين. وقبل وفاته ترك زوجته وطفليه في عهدة الراوية. سأل الراوية مرّة، الزوجة:

– هل أحببت مصطفى سعيد؟

يقول الراويَة :"لم تُجِبْ. وظللتُ برهة أنتظر، ولكنّها لم تُجِبْ...ثمّ نفذ صوتها إلى أذني:

– كان أباً لأولادي...كان زوجاً كريماً، وأباً كريماً، طول حياته، لم يقصّر معنا. أظنّه كان يخفي شيئاً
– لماذا؟
– كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة.
– ماذا في تلك الغرفة؟
– لا أدري. إني لم أدخلها قطّ. المفتاح عندك. لماذا لا تتحقّق بنفسك؟

في المقطع أعلاه، مفاتيح لا تفتح، للأسف، أيَّ باب من أبواب شخصية مصطفى سعيد. لماذا لم تُجِبْ رأساً حينما سألها الراوية هل أحببت، مصطفى سعيد؟ ولماذا قال لها مصطفى سعيد، ولم يقلْ زوجك أو المرحوم؟ هل بات، أو هل كان مصطفى سعيد رجلاً غريباً عليهما؟ لماذا لم تدخل الزوجة الى تلك الغرفة، من باب الفضول في الأقلّ؟ هل منعها؟ ولكنّ الأهمّ ما الذي كان يخفيه في تلك الغرفة؟.

ندخل الغرفة بمعيّة الراوية، وكأننا ندخل قبراً فرعونياً. الرائحة الراكدة وكأنْ راكدة منذ قرون، والعتمة التي لم تغتسلْ بالنور وكأنْ لم تغتسلْ منذ قرون.(سنتعرّف على هذه الغرفة فنيّاً لاحقا).

ما يثير الانتباه أوّلاً في هذه الغرفة "الكتب. يا إلهي. الحيطان الأربعة من الأرض حتى السقف. رفوف، رفوف،رفوف، كتب كتب كتب". ولكن ليس بين هذه الكتب، كتاب واحد باللغة العربية، حتى القرآن باللغة الإنكليزية.

منارات

التحرير
علي حسين

التصميم
مصطفى محمد

الاشراف اللغوي
محمد السعدي